تَكَوُّنُ العربيةِ الفصحى

الدكتور غانم قدوري الحمد

كلية التربية للبنات ـ جامعة تكريت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد ،

فإن علماء اللغة المحدثين قد بحثوا في أصل العربية الفصحى، وذهب أكثرهم إلى أن الشعر الجاهلي قد كتب بلغة أدبية موحدة، وقالوا: إن العربية الفصحى كانت لغة مشتركة بين العرب قبل الإسلام، وإن القرآن الكريم أنزل بتلك اللغة ، وهم لذلك يرفضون الروايات التي تذكر أن الصحابة قالوا: إن القرآن الكريم أُنْزِلَ بلغة قريش، لأنهم لاحظوا أن تحقيق الهمزة غالب في قراءة القرآن، وكانت قريش لاتهمز، واتهموا علماء العربية المتقدمين بالتعصب أو المجاملة حين وصفوا لغة قريش بالفصاحة مع خلوها من الظواهر النطقية المعيبة.

وموقف علماء اللغة المحدثين هذا موقف خطير، إذ فيه تكذيب الصحابة الذين جاءت أقوالهم في مصادر الحديث الموثقة، وفيه اتهام لعلماء اللغة العربية القدماء بأنهم تغاضوا عن الحقائق وأعماهم التعصب عن رؤيتها، فزعموا أن لغة قريش هي أفصح اللغات، لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها، إلى جانب أن هذه الدعاوى لم تستند إلى حقائق ثابتة ، ولا أدلة واضحة .

وكان ذلك الموقف المتسرع قد لفت نظري منذ سنوات، ولم أجد وقتئذٍ مايشكل

وجهة نظر واضحة في الموضوع ، ولكني جعلت أتتبع الروايات وأدرس الظواهر، وأقلب النظر في كتب القراءات والتفسير واللغة والأدب، حتى فتح الله تعالى علي ووفقني إلى نتيجة يطمئن إليها الفكر وتنسجم مع حقائق التاريخ وقوانين التطور اللغوي. وقد تريثت مدة طويلة في نشر خلاصة ماانتهيت إليه، حتى غلب على ظني الآن أن ذلك صار يمثل وجهة نظر متكاملة في الموضوع، من المفيد نشرها، مع علمي أن جوانب معينة لاتزال بها حاجة إلى التدقيق والتعمق، عسى أن تجد من الباحثين من يوضحها .

وقد تناولت الموضوع في إطار خطة تتلخص في عناوين المباحث الآتية :

- المبحث الأول : آراء الدارسين في أصل العربية الفصحى .
- المبحث الثاني : نزول القرآن بلغة قريش .
- المبحث الثالث :الهمز في اللغة العربية .
- المبحث الرابع : عربية الحجاز أصل العربية الفصحى.
- المبحث الخامس : الشعر الجاهلي واللغة الفصحى .
- المبحث السادس : علاقة العربية الفصحى بقراءة القرآن الكريم .

ويلزمني في هذه المقدمة توجيه الشكر المقرون بالدعاء إلى أستاذيَّ الكريمين الدكتور عدنان محمد سلمان والدكتور حسام سعيد النعيمي الأستاذين بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة بغداد، اللذين تفضلا بقراءة مسودة البحث، وأبديا ملاحظات مفيدة حوله، جزاهما الله تعالى كل خير. والحمد لله الذي أعانني حتى أنجزت هذا البحث، وأسأله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة نافعة، هو حسبنا ونعم الوكيل .

المبحث الأول : آراء الدارسين في أصل العربية الفصحى

تحدث علماء العربية الأوائل عن أفصح اللغات، وكانت لغة قريش في مقدمة القبائل التي خصوها بالفصاحة، فقال يحيى بن زياد الفراء(ت٢٠٧هـ) : « كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ ... » [١] .

وقال أبو نصر الفارابي(ت٢٦٠هـ):«كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانةعما في النفس، والذين عنهم نُقِلَت اللغة العربية وبهم أُقْتُدِيَ، وعنهم أُخِذَ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس، وتميم، وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ماأخذ ومعظمه، وعليهم أُتُّكِلَ في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ...» [٢] .

ونقل أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) عن إسماعيل بن أبي عبد الله أنه قال: أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالِّهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة. وذلك أن الله ـ جل ثناؤه ـ اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم – وكانت قريش ـ مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ـ إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ماتخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنك

لاتجد في كلامهم عنعنة تميم، ولاعجْرَفيّة قيس، ولاكشكشة أسد، ولاكسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي نسمعه من أسد وقيس، مثل: تِعلمون ونِعلم ، ومثل شِعير وبِعير[٣].

وقال ابن خلدون(ت٨٠٨هـ) وهو يتحدث عن أثر المخالطة في انحراف الألسن :

« ولهذا كانت لغة قريش أصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم. وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم، وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية »[٤].

وتشترك هذه النصوص في أن لغة قريش هي أفصح لغات العرب، ثم هي تشير إلى مواطن الفصاحة في قبائل العرب، من الذين أُخِذَتْ عنهم نصوص اللغة واعتمد عليهم في الاحتجاج اللغوي، وورد في قول الفراء وابن فارس أن قريشاً كانوا يتخيرون كلام القبائل الاخرى التي تؤم وفودها مكة للحج أو التجارة، ويمكن أن تكون هذه الملاحظة الأخيرة مقبولة إذا حملنا ذلك التخير على معنى التأثر غير المقصود بكلام العرب الذين يخالطون أهل مكة في مناسبات متعددة، فبتكرر المخالطة وتنوع ما يسمعه أهل مكة من كلام القبائل يمكن أن يحصل التأثر، ولكن معالم ذلك التأثر غير محددة ولا هي بينة .

وبحث عدد من المستشرقين هذا الموضوع وهم يتحدثون عن لغة الشعر الجاهلي، وعن لغة القرآن الكريم، ويذهب أكثر من اطلعت على أبحاثهم التي ترجمت إلى اللغة

العربية إلى أن هناك لغة أدبية مشتركة تنتظم الشعر العربي قبل الإسلام، ولكنهم كانوا مضطربين في تحديد اللغة التي أنزل بها القرآن الكريم، وسأعرض عدداً من النصوص التي توضح وجهة نظرهم .

يقول المستشرق الألماني تيودور نولدكه : وقد سيطرت في الجزيرة العربية نفسها، في القرن السادس الميلادي تلك اللغة التي يسميها المرء(اللغةالعربية) إلى حد بعيد جداً، لأنها أهم لغة تكلم بها العرب مطلقاً، فالشعر الذي أزدهر حينذاك في كل وسط الجزيرة العربية وشماليها، حتى أسفل الفرات وما وراء ذلك، هذا الشعر يستعمل لغة موحدة.. ويمكن للمرء أن يظن أن لغة الشعر كانت على الأقل بالنسبة لمعظم العرب لغة فنية مصنوعة وأن بعض القبائل اتخذت لغة القبائل الأخرى ...[٥] .

ويقول عن علاقة لغة قريش باللغة الأدبية التي يتحدث عنها: وتسمية اللغة العربية (باللهجة القرشية) تلك التسمية التي غالباً مايستعملها الأوربيون تسمية خاطئة جداً، ولاتوجد أبداً لدى أي مؤلف عربي، وقد يُتكَلّمُ عن لهجة قريش في أحوال نادرة للتعبير عن الفروق اللغوية الخاصة لمكة.. وقد اعتمد على هذه التسمية التي خانها الحظ الرأي الذي تكرر القول به في العصر الحديث بأن اللغة العربية الكلاسيكية هي لهجة قريش التي لم يتح لها تلك المكانة إلا بسبب نزول القرآن بها، غير أننا نعرف أن طريقة نطق مدن الحجاز ليست في كل المواضع متفقة مع لغة الشعر.. أما الروايات التي تقول بأن لهجة قريش هي أحسن اللهجات العربية كلها فإن بعضها مخترع، وفي بعضها مجاملة للحكام الذين ينحدرون من قبيلة قريش ...[٦].

وتعرض كارل بروكلمان المستشرق الالماني للموضوع على نحو موجز في كتابيه: تاريخ الأدب العربي، وفقه اللغات السامية ، فقال في الأول: « ولاشك في أن لغة الشعر

القـديم هذه لايمكن أن يكون الرواة والأدباء اخـتـرعـوها على أسـاس كـثـرة من اللهجات الدارجة ، ولكن هذه اللغة لم تكد تكون لغة جارية في الاستعمال العام ، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات ، وإن غذتها جميع اللهجات »[٧] . وقال في الثاني: ويستعمل كل شعراء هذه البلاد لغة مشتركة، هي لغة الشعر بالطبع، مع أنهم ينتمون إلى قبائل مختلفة وقد كان يعيش إلى جانب اللغة الشعرية في شمال الجزيرة العربية لهجات القبائل كذلك ، تلك اللهجات التي لا نعرف عنها إلا الشيء الضئيل ، عن طريق النحويين المتأخرين غير أننا نعرف إحدى هذه اللهجات وهي لهجة مكة عن قرب، فهي تكوِّن الأساس الذي بني عليه القرآن الكريم ...» [٨] .

وناقش المستشرق الفرنسي بلاشير الموضوع على نحو أكثر تفصيلاً في كتابه عن (القرآن)، وكتابه في(تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي)، فأثار في كتابه الأول سؤالاً عن دلالة العبارة القرآنية(بلسان عربي مبين) حيث قال: فهل كان المقصود بالنسبة لمحمد وأبناء جيله اللهجة المحلية المحكية في مكة؟ أم كان المقصود لغة شعرية عامية[٩]، تستعمل إلى جانب اللهجات المحلية المحكية عند قبائل البدو من شرقي الجزيرة العربية حتى الحجاز؟ إن الاجابة عن هذا السؤال مستحيلة.. إن كل شيء يؤدي إلى التفكير بأن القرآن لم ينقل ويدون باللهجة الخاصة بمكة، بل بلغة قريبة من اللغة الشعرية ..[١٠].

ويغلب على بلاشير التردد في إعطاء جواب محدد عن القضية في كتابه الثاني، مع أنه خصص فصلاً كاملاً لمناقشتها[١١] استهله بمناقشة المعطيات التي يمكن أن يعتمد عليها في دراسة اللغة العربية ولهجاتها، ثم عرض نظرية علماء المسلمين عن نشوء العربية الفصحى، وناقش في فقرة أخرى تلك النظرية، فقال: تعترض النظرية الإسلامية القائلة بتولد العربية الفصحى من اللهجة المكية باعتبارها عموداً لغوياً

عقبات[١٢]، منها أننا لانملك برهاناً على تفوق اللغة القرشية في شبه الجزيرة قبل ظهور القرآن، ومنها أن القرآن لو ظهر بلهجة قريش خارج الحجاز لما أحدث التأثير الذي أحدثه، حسب رأيه[١٣]. وهذه الاعتراضات لاتشكل في الواقع عقبة حقيقية في وجه النظرية الإسلامية على ماسيتضح من مناقشة موضوع نزول القرآن بلغة قريش في مبحث لاحق إن شاء الله تعالى.

ويختم بلاشير الفصل بمناقشة موضوع (اللهجة الشعرية ونشوء العربية الفصحى) من وجهة نظره، ويقرر أن القرآن لايستند على اللهجة المكية بل على لغة الشعر الجاهلي، ولكنه يعترف أنه لايزال مصدر تلك اللغة الشعرية مجهولاً، وهو يتردد في تحديد أصلها بين أن تكون لهجة محلية تطورت إلى لغة أدبية ، وأن تكون تركيباً صناعياً بطيئاً من أكثر من لهجة، ويقول: إنه ليس لدينا أسباب قوية تجعلنا نبعد أن تكون اللغة الشعرية هي لغة الوحي المنزل على -محمد صلى الله عليه وسلم- ويختتم بلاشير مناقشته بالتأكيد على أثر القراء والنحويين في صوغ قواعد العربية الفصحى على نحو طمس كثيراً من معالم اللهجات القديمة وسبكها في قالب موحد[١٤].

ويمكن أن نلخص وجهة نظر هؤلاء المستشرقين في الموضوع بالنقاط الآتية، مع ملاحظة وجود فوارق جزئية بينهم :

١ - إن اللغة الأدبية التي نظم بها الشعر الجاهلي لغة فنية مصنوعة غير جارية في الاستعمال اليومي العام، وكانت تعيش إلى جانبها لهجات القبائل التي تستعملها في شؤون الحياة اليومية .

٢ - إن اللغة الأدبية لاتستند إلى لغة قريش .

٣ - إن نزول القرآن الكريم كان باللغة الأدبية، لا بلغة قريش .

وتركت هذه الأفكار آثاراً واضحة لدى كثير من الباحثين المحدثين من العرب وهم يعالجون القضية، لكن استطاع بعضهم أن يحرر فكره من قيودها ويقترب من الصورة التي نتصورها لتكوُّن العربية الفصحى، والتي نعتقد أنها أكثر مطابقة لحقائق التاريخ وقوانين اللغة .

وناقش المؤلفون في تاريخ الأدب العربي وفقه اللغة العربية من العرب هذا الموضوع أيضاً في العصر الحديث، وكان مصطفى صادق الرافعي من أوائل الذين تصدوا لبحث الموضوع في كتابه (تاريخ آداب العرب) الذي صدر الجزء الأول منه في القاهرة سنة١٩١١م وهو يذهب إلى أن اللغة العربية الفصحى مرت بأدوار من التهذيب كان آخرها الدور الذي سادت فيه لغة قريش قبل الإسلام، وبلغتهم نزل القرآن فتكونت به الوحدة اللغوية في العرب[١٥]. والرافعي ينكر أن تكون هناك لغة أدبية قبل الإسلام، حيث يقول في كتابه (المعركة بين القديم والجديد) : على أن هذه (اللغة الأدبية) وهم سخيف من أوهام المستشرقين .... فإن اللغة الأدبية لاتنشأ ولن تستقيم إلاإذا كانت مدونة متدارسة ، إذ الكتابة قيد من التغيير والتبديل، وهي نص في عموم الاحتذاء والمحاكاة، لأنها في مكان ما هي في كل مكان غيره[١٦] .

وتناول الدكتور طه حسين الموضوع في أثناء بحثه عن أدلة يقوي بها نظريته المردودة في انتحال الشعر الجاهلي، وتحدث عن عدد من القضايا التي أثارت جدلاً لدى الباحثين والذي يعنينا هنا هو حديثه عن اللغة الفصحى، وهو يرى أنه من « المعقول جداً» أن تكون لكل قبيلة من القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض

القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة، ولكننا لانرى شيئاً من ذلك في الشعر العربي الجاهلي »[١٧] ويرى « أن الإسلام قد فرض على العرب جميعاً لغة عامة واحدة هي لغة قريش »[١٨].

وعلى الرغم من ذلك نجده متردداً بعد ذلك، ويعترف بأن لغة قريش كانت قد تهيأت لها عوامل السيادة والانتشار قبيل الإسلام، حيث قال: فالمسألة إذن هي أن نعلم: أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده؟ أما نحن فنتوسط ونقول: إنها سادت قبيل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية، ولكن سيادة لغة قريش قبيل الإسلام لم تكن شيئاً يذكر ولم تكد تتجاوز الحجاز...»[١٩] ، وينتهي إلى القول: لغة قريش إذن هي هذه اللغة العربية الفصحى، فرضت على قبائل الحجاز فرضاً لايعتمد على السيف وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية، وكانت هذه الأسواق التي يشار إليها في كتب الأدب، كما كان الحج، وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش[٢٠]. ويلاحظ هنا أن الدكتور طه حسين يجعل سيادة اللغة القرشية في وقت قريب جداً من ظهور الإسلام، حيث استعمل كلمة (قُبيل الإسلام)، وكذلك هو يحصر تلك السيادة في رقعة جغرافية محدودة هي بلاد الحجاز فقط .

وبعد منتصف هذا القرن ازداد عدد الذين تناولوا الموضوع، ومعظمهم ممن كتب في فقه اللغة العربية، وهم جميعاً يذهبون إلى وجود لغة أدبية قبل الإسلام، استعملت في الشعر الجاهلي، ثم نزل بها القرآن الكريم، وأكثرهم يرى أن تلك اللغة لا ترتبط بلغة قريش أكثر من ارتباطها بلغات القبائل الأخرى ، وعدد منهم يعترف بوجود شبه كبير

بين العربية الفصحى ولغة قريش، لكن مسألة الهمز تجعلهم دائماً يقولون إن العربية الفصحى لاتستند إلى لغة قريش وحدها. ولعل عرض وجهات نظرهم جميعاً على نحو مفصل أمر لاتحتمله طبيعة هذا البحث، وسوف أكتفي بتلخيص وجهة نظر رواد البحث اللغوي العربي، وأشير بإيجاز إلى جهود غيرهم.

يتلخص رأي الدكتور إبراهيم أنيس في قوله: « لما جاء الإسلام كانت اللغة العربية مزدهرة مكتملة النمو تنتظم كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتُصطنع في آداب يعتز بها أهلها، ويتنافسون في إتقانها وإجادتها.. وكانت هذه اللغة الأدبية بمثابة لغة مشتركة بين العرب جميعاً، يتخذونها أداة التعبير عن آدابهم ويعتزون بها كل الاعتزاز، ولهذا نزل القرآن الكريم بها. فلم تكن لغة قريش وحدها، أو لغة مكة وحدها، بل كانت اللغة المشتركة للعرب جميعاً، غير أن نزول القرآن بها قد زادها ازدهاراً وثبت أركانها ودعائمها »[21] وكان الدكتور إبراهيم أنيس قد فصل عوامل تكون اللغة الأدبية المشتركة، وبحث في العوامل التي ساعدت على نمو لغة أدبية عربية في بيئة مكة من دينية واقتصادية قبل الإسلام في كتابه (مستقبل اللغة العربية المشتركة)، ثم قال: «وهكذا نرى أن بيئة مكة قد هُيئت لها ظروف وفرص بعضها ديني وبعضها اقتصادي واجتماعي مما ساعد على أن تصبح المركز الذي تطلعت إليه القبائل، وشدت إليه الرحال قروناً عدة قبل الإسلام، فكان أن نشأت بها لغة مشتركة تأسست في كثير من صفاتها على لهجة مكة، ولكنها استمدت أيضاً الكثير من صفات اللهجات التي كانت تفد إليها. ثم نمت هذه اللغة مع الزمن وتبلورت مسائلها وأصبح لها كيان مستقل عن كل اللهجات، ثم انتشرت مع القبائل والوفود التي انتظمت جميع أنحاء شبه الجزيرة وأصبحت اللغة التي ينظم بها الشعراء ويخطب بها الخطباء والتي تُصطنع في كل مجال جدي من

القول، فهي اللغة الأدبية النموذجية التي كانت محل الإعجاب والتقدير من العرب جميعاً، ولذلك نزل بها القرآن الكريم... فلا يمثل القرآن لغة قريش وحدها كما يتردد أحياناً في بعض الكتب والروايات، وإنما يمثل اللغة المشتركة بين العرب جميعاً، لغة الأدب من شعر وخطابة وكتابة »[٢٢] .

وقد ردد الدكتور إبراهيم أنيس رأيه السابق في مواضع كثيرة من كتابه (في اللهجات العربية)[٢٣]، وهو يعترف بأثر لغة قريش الكبير في الفصحى حين قال: وقد اتخذت تلك اللغة الأدبية معظم صفاتها من لهجة قريش مع ما استحسنه خاصة العرب من صفات اللهجات الأخرى[٢٤] . ولم يذكر من الفوارق اللغوية البارزة بين الفصحى ولغة قريش سوى موضوع الهمز، حيث قال: وتختلف اللغة الأدبية عن لهجة قريش في القليل من الصفات الصوتية، كتحقيق الهمزة الذي لم يكن شائعاً بين الحجازيين ولكنه يعد أصلاً في اللغة النموذجية...[٢٥] .

وتحدث الدكتور رمضان عبد التواب في فصل خاص من كتابه (فصول في فقه العربية) عن (ظروف تكون العربية الفصحى)، وهو يقرر فيه أن اللغة المشتركة نشأت ونمت وازدهرت قبل الإسلام في مكة، لظروف دينية وسياسية واقتصادية[٢٦]، وبين، بعد أن شرح تلك الظروف، صفات تلك العربية الفصحى المشتركة[٢٧] : فالصفة الأولى هي أنها فوق مستوى العامة، أي أنها لم تكن في متناول جميع العرب، والثانية أن اللغة المشتركة لاتنتمي صفاتها أو عناصرها إلى بيئة محلية بعينها، أي أنها ليست لغة قبيلة بعينها، فلا يحق لنا أن نقول مثلاً، حسب رأيه: إن اللغة المشتركة هي لغة قريش، أو تميم أو غيرهما من قبائل العرب، بل هي مزيج من كل هذا. ولكنه يقرر في الوقت نفسه أن لهجة « قريش أسهمت في تكون العربية الفصحى بعناصر كثيرة، فلا مبالغة إذن في

إطلاق عبارة(لغة قريش) على اللغة العربية الفصحى »[٢٨] والصفة الثالثة: أنها لم تكن لغة سليقة لكل العرب، ومعني السليقة أن المتكلم يتكلم باللغة بغير شعور بما لها من خصائص .

وتحدث الدكتور محمود فهمي حجازي عن الموضوع في غير كتاب من كتبه، ويتلخص رأيه في قوله: « وتختلف اللغة العربية الفصحى كما نعرفها في الشعر الجاهلي اختلافات بعينها عن كل لهجة من اللهجات العربية القديمة، حتى إنه من الصعب اعتبار العربية الفصحى امتداداً مباشراً لإحدى هذه اللهجات....» [٢٩] وقال في موضع آخر: « ولهذا فليس من الممكن تصور أن لغة القرآن الكريم تعكس لهجة الحجاز أو أية لهجة أخرى »[٣٠] .

وهناك عدد من الباحثين نَحَوْا هذا المنحى، وهو القول بأن العربية الفصحى تكونت قبل الإسلام، وأنها لاتمثل لغة بعينها من لغات العرب، مع اعترافهم بأن لغة قريش أسهمت بقسط وافر فيها، لكن مسألة الهمز في العربية الفصحى تقدم لهم دليلاً على عدم انتساب العربية الفصحى إلى لغة معينة من قبائل العرب ، منهم الدكتور عبد الصبورشاهين[٣١]، والدكتور أحمد نصيف الجنابي[٣٢].

ويقول الدكتور عبده الراجحي بعد أن عرض آراء الباحثين في أصل العربية الفصحى: « والرأي بعد هو مانحسبه موافقاً لطبيعة التطور اللغوي، وهو أن شبه الجزيرة العربية كانت بها لهجات كثيرة مختلفة تنتسب كل منها إلى أصحابها، وإلى جانب هذه اللهجات كانت هناك لغة عربية مشتركة تكونت على مرالزمن بطريقة لاسبيل لنا الآن إلى تبينها، وهذه اللغة المشتركة لاتنتسب إلى العرب جميعاً » .[٣٣] واطلعت أخيراً على مناقشة الدكتور تمام حسان للموضوع، وهو ينفي أن تكون لغة قريش أصلاً

للعربية الفصحى[٣٤].

ونجد طائفة قليلة من الباحثين قد ذهبت إلى أن لغة قريش هي أصل العربية الفصحى، وأن القرآن الكريم نزل بها، وأن سيادة الفصحى في الجزيرة العربية كانت قبل الإسلام، ومن هؤلاء الدكتور علي عبد الواحد وافي[٣٥]، والدكتور حسن عون[٣٦]، والدكتور شوقي ضيف[٣٧].

وذهب الدكتور صبحي الصالح إلى ذلك أيضاً، لكنه أثار قضية الهمز وأشار إلى أن العربية الفصحى أخذت ذلك من لغة تميم. وعلل ذلك بأن العرب حين استصفوا لهجة قريش وجعلوها لغتهم الأدبية المشتركة أثّروا فيها مثلما تأثروا بها[٣٨].

إن آراء الباحثين في علاقة العربية الفصحى بلغة قريش تتلخص في ثلاثة اتجاهات :

- **الأول** : استبعاد استناد العربية الفصحى إلى لغة قريش، وهذا الاتجاه يغلب على آراء المستشرقين .
- **الثاني** : أن العربية الفصحى استمدت كثيراً من خصائصها من لغة قريش، لكن لغات القبائل الأخرى أسهمت على نحو كبير في تكون الفصحى أيضاً ويغلب هذا الاتجاه على أكثر الباحثين المحدثين من العرب .
- **الثالث** : أن لغة قريش هي أصل العربية الفصحى، وهو رأي علماء العربية الأوائل ورأي عدد قليل من المحدثين .

وتثير آراء الباحثين التي عرضناها قضايا أخرى محتاجة إلى التحقق، منها:

١ – وجود لغة أدبية مشتركة قبل الإسلام يستخدمها العرب عامة في الشعر والخطابة ونحو ذلك، مهما كان أصل تلك اللغة .

٢ – نزول القرآن الكريم بتلك اللغة الأدبية ونفي نزوله بلغة قريش[٣٩] .

وبعد أن عرضنا آراء السابقين وحددنا اتجاهاتها ودلالاتها علينا أن نعطي في المباحث الآتية إجابات محددة عن القضايا التي أثارتها تلك الآراء، وسوف أبدأ بقضية نزول القرآن، لأن إثبات هذه القضية سوف يمهد الإجابة عن القضايا الأخرى، إن شاء الله .

المبحث الثاني : نزول القرآن بلغة قريش

تنقل المصادر العربية القديمة روايات تؤكد أن القرآن أنزل بلغة قريش، وقد دأب كثير من الباحثين المحدثين على رفض تلك الروايات، يقول بلاشير: « إن القرآن لايستند على اللهجة المكية بل على لغة الشعر الجاهلي»[٤٠] ويقول الدكتور عبده الراجحي: «وتردد الكتب كثيراً أيضاً أن القرآن أنزل بلغة قريش، ومع أن القرآن الكريم بقراءاته المتواترة والشاذة يناقض هذا الزعم على ماسيظهر خلال هذا البحث فإن النصوص الكثيرة التي يروونها عن (اللغات) التي نزل عليها القرآن كافية لنقض ذلك أيضاً..» [٤١] .

وكان الدكتور إبراهيم السامرائي أكثر الباحثين المحدثين الذين اطلعت على آرائهم رفضاً لفكرة نزول القرآن بلغة قريش، وأطال الحديث في ردها وهو يتحدث عن تاريخ العربية، ولندع النصوص المنقولة في كتابه (تاريخ العربية) تتحدث عن رأيه، قال: يكرر المعنيون بالدراسات القرآنية أن القرآن جاء بلسان قريش. وهذه مقولة لانجد لها مكاناً واضحاً يحققه البحث العلمي[٤٢]. وقال: ثم إن هذه الآراء التي فضلت لغة قريش ووصفتها بالفصحى وهي أفصح من سواها تؤدي إلى القول: إن القرآن أنزل بلغة

قريش... .

وإن النظر العلمي لهذه المسألة اللغوية التاريخية يبتعد كل البعد عن هذه الأقوال. ولا نسلم أن لغة قريش أفصح اللغات لخلوها من العيوب التي أشاروا إليها لأننا لم نعرف شيئاً واضحاً عن هذه اللغة في أصواتها ومبانيها ومعانيها وأكبر الظن أنهم سلموا بذلك لأن الرسول الكريم - صلوات الله عليه - من قريش ...

ولانسلم أن قريشاً أفصح العرب ..

ثم إننا لانسلم أن تكون لغة قريش أفصح اللغات ..

ولانستطيع أن نسلم أن القرآن أنزل بلغة قريش... فكيف نقول: « إن القرآن أنزل بلغة قريش إذا عرفنا أن قريشاً تُسَهِّل الهمز، في حين أن نصَّ القرآن قد احتفظ بالهمز » [٤٢] وقال في موضع آخر من الكتاب: « واهتمام اللغويين باللغات التي وردت في المصحف والاتساع في القراءات يشعرنا أن مسألة مجيء النص القرآني بلسان قريش شيء لانستطيع أن نطمئن إليه كثيراً. وقد اهتم بجمع القرآن أبو بكر وعمر وعثمان وأيدهم علي بن أبي طالب. وكان هؤلاء الأئمة الكبار قد أحسوا أن المسلمين سيختلفون اختلافاً كبيراً في كتاب الله يوشك أن يؤدي إلى شر عظيم فعمدوا إلى جمعه وحفظه. وقد دأبوا على مقولتهم المشهورة: إن كتاب الله أنزل بلسان قريش، وذلك ليُكَوِّنَ المسلمون إجماعاً عليه خشية أن تتفرق كلمتهم فينتهوا إلى شيع وأحزاب.. ويبدو أن حرص عمر بن الخطاب على كلام الله وحرص سائر الخلفاء أبي بكر وعثمان وعلي على الموضوع نفسه جعلهم يتشبثون بهذه المقولة ليبعدوا الألسنة المختلفة المتعددة عن أي القرآن وألا تجد طرائق في التعبير سبيلها إلى كلام الله حفاظاً على وحدة المسلمين وإجماعاً لشملهم. ولقد ظل هذا ديدن الحاكمين وأولي الأمر في المجتمع الإسلامي دهراً

طويلاً »[٤٤].

ولن أتتبع ماورد في الأقوال السابقة - الآن - بالمناقشة، لأن هذا المبحث معقود لمناقشة القضية بجملتها، وأكتفي بالتعليق على استعمال عبارة (وقد دأبوا على مقولتهم المشهورة..) وعبارة (جعلهم يتشبثون بهذه المقولة..)، وهم الخلفاء الراشدون - رضي الله عنهم - وكلتا العبارتين يفهم منهما القارئ المعاصر - إذا لم أخطئ التقدير - أن الخلفاء قد أيأسهم الحال وأنهم - كالغريق - يتشبثون بتلك المقولة التي يحاول الدكتور إبراهيم السامرائي أن يثبت بطلانها، واستعمال (يتمسكون) - في رأيي - أكثر تعبيراً من (يتشبثون) لأن الأولى تعنى التمسك بالحق، والثانية تعني التشبث بالباطل .

وسـوف أعـرض الأدلة التي تؤكـد أن القـرآن الكريم أنزل بلغـة قـريش في مجموعتين :

الأولى النصوص التاريخية، والثانية النصوص اللغوية، ولكن قبل ذلك ينبغي أن أقف بالقارئ عند عبارة (نزول القرآن بلغة قريش) ماالذي تعنيه؟ وماذا يراد بها ؟

إن الذين لهم اطلاع على تاريخ القرآن يعرفون أن النبي - صلى الله عليه وسلم - تلقى القرآن من جبريل - عليه السلام - كما صرحت الآيات الكريمة بذلك [٤٥]، ودلت عليه الأحاديث المنقولة [٤٦]، وليس من شأننا هنا التعرض لذلك الجانب الغيبي من التلقي للقرآن [٤٧]، وإنما الذي يعنينا هو التبليغ النبوي للنص القرآني إلى الناس،وهنا تتحدد دلالة عبارة (نزول القرآن بلغة قريش)، حيث يفهم منها أن طريقة نطق النبي صلى الله عليه وسلم لألفاظ القرآن كانت بالنطق السائد للعربية في مكة، وأن ألفاظ القرآن ذاتها

كانت مما جرى في استعمال الناس القاطنين في مكة وما حولها، وأن كتابته قد جرت على ذلك النطق وتلك الألفاظ .

أولاً: النصوص التاريخية :

يقرر القرآن حقيقة ثابتة في منهاج الرسالات، وهي أن كل رسول إنما يرسل، أي ينزل عليه الوحي الإلهي، بلغته ولغة قومه، وذلك في قول الله تعالى:(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) (إبراهيم٤)، قال الطبري: بلسان قومه: أي بلغة قومه، ماكانت[٤٨]. ومن ثَمَّ جاء القرآن باللسان العربي، وقد تأكد هذا المعنى في أكثر من آية منها قوله تعالى: (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين)(الشعراء١٩٢ -١٩٥).

وقد وردت نصوص تؤكد نزول القرآن بلغة قريش خاصة، وهي لغة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن تلك النصوص أن الصحابي عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - بعث به عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في خلافته، إلى الكوفة ليعلم الناس هناك الفقه وقراءة القرآن[٤٩]. وماهي إلا أن جاءت الأخبار إلى عمر بأن ابن مسعود يُقْرِئُ القرآن بلغة قومه هُذَيْل، فكتب عمر بن الخطاب إليه هذه الرسالة: أما بعد، فإن الله تعالى أنزل القرآن بلغة قريش، فإذا أتاك كتابي هذا فأَقْرِئِ الناس بلغة قريش، ولاتُقْرِئْهُمْ بلغة هُذَيْل[٥٠] .

وخبر كتابة المصاحف في خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وإرسالها إلى الأمصار الإسلامية مشهور نقلته أصح كتب الحديث وأوثق كتب التاريخ، وقد جاء فيه أن عثمان أوصى الصحابة الذين كانوا يعملون مع زيد بن ثابت الأنصاري وهم ثلاثة نفر من قريش: عبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام،

بالوصية الآتية : وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا[٥١]. ونقل البخاري رواية أخرى جاء فيها «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش»[٥٢].

هل للباحث المدقق والدارس المحقق أن يمر بهذه الرواية ثم يتناساها بل يتنكر لمضمونها، ثم يقول: إن العصبية هي التي حملت الصحابة على تمجيد لغة قريش لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم - منهم؟ إن مثل هذا الموقف لايقره المنهج العلمي السديد، فعثمان بن عفان - رضي الله عنه - حين قال ذلك وهو خليفة المسلمين وأحد كتاب الوحي الأوائل، وأحد حفاظ القرآن، فإنه إنما يُعَبِّرُ عن حقيقة لم يُعْرَفْ عن أحد من الصحابة أنه أنكرها، بل تعاون الصحابة على تحقيقها في كتابة القرآن، فجاء مكتوباً بلغة قريش التي أنزل بها .

وهاهنا قضية قد تعارض في الظاهر القول إن القرآن أُنزل بلغة قريش، وهي مااشتهر من قول النبي - صلى الله عليه وسلم : (إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ماتيسر منه) وهوحديث صحيح مشهور متواتر[٥٣]، ونحن لانجد تعارضاً بين القول بنزول القرآن بلغة قريش وماجاء في الحديث الشريف، لأن (الأحرف السبعة) الواردة في الحديث لم يقطع العلماء بأن المقصود بها نزول القرآن بسبع لغات من لغات العرب، والأخبار المنقولة عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - في تعيين لغات قبائل معينة ضَعَّفَها العلماء لانقطاعها أو تجريح نقلتها[٥٤]. وقد ورد في عدد من روايات الحديث أن الله تعالى رخص لنبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يُقْرِئَ القرآن على سبعة أحرف[٥٥]. فيمكن أن يكون إنزال القرآن بلغة قريش وإقراؤه على سبعة أحرف، وقد

صرحت بذلك بعض الروايات القديمة فقد نقل أبوشامة المقدسي عن ابن عباس: "أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يُقْرِئُ الناس بلغة واحدة، فاشتد ذلك عليهم فنزل جبريل، فقال:يامحمد، أقرئ كل قوم بلغتهم" [٥٦] ولهذا الموضوع تفصيلات ليس هذا موضع عرضها، وقد تكفلت كتب علوم القرآن بمناقشتها [٥٧]، وأكتفي هنا بما أوردته مما يمكن أن ينفي التعارض الذي أشرت إليه. وبذلك تظل دلالة الروايات التاريخية على نزول القرآن بلغة قريش وكتابته في المصاحف بها قائمة غير منتقضة.

ثانياً : النصوص اللغوية :

إن نصوص اللغة أوسع من أن يحيط بها بحث أو أن يضمها كتاب، وإن الذي أعنيه هنا هو الروايات التي جاءت تبين أن ظاهرة لغوية معينة قد وردت في القرآن الكريم، وكانت تلك الظاهرة من خصائص لغة أهل الحجاز دون غيرهم من العرب، فإذا تكاثرت تلك الروايات فإنها تصير حجة تؤكد نزول القرآن بلغة قريش. وقد أمكنني التقاط عدد من تلك الظواهر من كتب اللغة ومعاني القرآن القديمة، ويمكن أن نسلك في هذا الجانب دلالة رسم المصاحف القديمة على أن القرآن الكريم كُتِبَ بلغة قريش .

أ - **الظواهر اللغوية** : إن ماعرفته من تلك الظواهر لايمكن أن يكون كل ماهو موجود في كتب التراث العربي حول الموضوع، لأنني لم أعرض إلا عدداً محدوداً منها، وفي وقت قصير نسبياً، ولكن النصوص التي عثرت عليها تؤيد النصوص التاريخية التي مرت، وهذه أمثلة من تلك الظواهر.

١ - قال سيبويه وهو يتحدث عن لغة بني تميم وأهل الحجاز في (ما) النافية:

وأمَّا بنو تميم فيُجْرُونَها مجرى أمَا وهَل، أي لايُعْمِلُونها في شيء وهو القياس.. وأمَّا أهل الحجاز فيُشبِّهُونها بليس إذ كان معناها كمعناها.. ومثل ذلك قوله عز وجل: (ماهذا بشراً) (يوسف٣١) في لغة أهل الحجاز، وبنو تميم يرفعونها إلا مَنْ عرف كيف هي في المصحف [٥٨] .

٢ - وقال الفراء وهو يعلق على قوله تعالى: (ما أنتم عليه بفاتنين)(الصافات١٦٢) " وأهل نجد يقولون: بمفتنين، أهل الحجاز فتنت الرجل، وأهل نجد يقولون: أفتنته"[٥٩] .

٣ - وقال الأخفش وهو يتحدث عن قوله تعالى:(قالوا لاتوجل)(الحجر٥٣): وأما بنو تميم فيقولون:(تيجل)..[٦٠] .

٤ - وقال أيضا وهو يتحدث عن قوله تعالى:(إلى النحل أن اتخذي) (النحل ٦٨): " على التأنيث في لغة أهل الحجاز، وغيرهم يقول: هو النحل"[٦١] .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وهناك نصوص أخرى تتقابل فيها لغة أهل الحجاز ولغة أهل نجد، ولكني أعرضت عن ذكرها هنا لأن الخلاف بين اللغتين فيها لا يظهر أثره في رسم المصحف مثل مانجده في النصوص السابقة التي تشير، على قلتها، إلى موافقة لغة أهل الحجاز، وقلب الحجاز مكة، وأهل مكة هم قريش، للنص القرآني الكريم. وقلة النصوص هنا غير مُتَأتٍّ من قصور الاستقراء فقط، بل من إغفال علماء العربية المتقدمين النص على لغات قبائل العرب في كثير من الأحيان أيضاً .

(ب) الظواهر الكتابية : بأيدي الباحثين في تاريخ اللغة العربية وثيقة أصلية ولكنهم أغفلوا الاستفادة منها، وهي رسم المصحف[٦٢] كما يظهر في المصاحف القديمة، وكما هو محرر في كتب رسم المصحف وأهمية هذه الوثيقة تكمن في أن طريقة كتابة الكلمات في المصاحف التي كتبها الصحابة قد حُفِظَتْ كما هي في المصاحف القديمة التي بقي كثير منها إلى زماننا، وقدم مؤلفو كتب رسم المصحف وصفاً دقيقاً لها [٦٣].

وسوف أقتصر على دراسة كتابة الهمزة في رسم المصحف، لأن ظاهرة الهمز في العربية تكاد تكون أهم قضية جعلت المحدثين يترددون في قبول الفكرة القائلة بأن القرآن نزل بلغة قريش، وأن لغة قريش أصل العربية الفصحى .

وأول قضية ينبغي أن نقررها هنا هي أن للعرب في القرن الأول للهجرة خاصة مذهبين في كتابة الهمزة: الأول كتابتها بالألف في كل موضع وردت فيه من الكلمة، ومهما كانت حركتها، وذلك في لغة من يحقق الهمزة من العرب وهم أهل نجد خاصة (تميم وقيس وأسد)[٦٤] .

وكان الفراء قد ذكر أنه رأى الهمزة مكتوبة بالألف في مصاحف أهل الكوفة القديمة المنسوبة إلى عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - فرأى كلمة(شيئاً ويستهزأون) قد كُتِبَتِ الهمزة فيها بالألف[٦٥].

والمذهب الثاني في رسم الهمزة أن تكتب ألفاً في أول الكلمة فقط، ثم ترسم في المواضع الأخرى بالحرف الذي تؤول إليه في لغة منْ يسهلها، وهم أهل الحجاز، الذين يقولون (راس وبير وشُوم) [٦٦] .

وبعد هذا يمكن أن ننظر إلى رسم المصحف في صورته القديمة لنتعرف على طريقة كتابة الهمزة فيه، وعلى القارئ أن يتذكر أن صورة الكتابة في المصاحف القديمة

كانت مجردة من العلامات الكتابية كلها، فلا نقط ولاحركات ولاهمزة قطع ولا وصل ولا أي شيء آخر من العلامات الكتابية التي نعرفها أو نستعملها في كتابتنا اليوم .

جاء في كتب رسم المصحف أن الهمزة المتوسطة قد رُسِمَتْ في المصاحف القديمة ياءً أو واواً أو ألفاً. بحسب ماتؤول إليه في التخفيف ، وتقدم لنا هذه الأمثلة: الذيب، وبير، وسيلت، والخاطية، ويتبيك، وستقريك وغيرها. ويوفكون، والمومنون والموتون، والفواد وسُوال، ويولف، وأبناوكم، وغيرها، والباس، والضان، وياكل وسال، وغيرها[٦٧].

إن هذه الكلمات تبين أن الذين تولوا نسخ المصاحف كانوا لايحققون الهمزة، وإنما يكتبون حرف العلة الذي يخلفها في نطق الكلمة .

وكان عدد من علماء السلف ـ رحمهم الله – قد لاحظوا أن كتابة الهمزة في المصحف قد جرت على مذهب من يسهلها، فقد قال أبو عمرو الداني (ت٤٤٤هـ): والهمزة قد تصور على المذهبين من التحقيق والتسهيل، دلالة على فشوهما واستعمالهما فيها، إلا أن أكثر الرسم ورد على التخفيف، والسبب في ذلك كونه لغة الذين وَلُوْ نسخ المصاحف زمن عثمان، رحمه الله، وهم قريش.. فلذلك ورد أكثر الهمز على التسهيل، إذ هو المستقر في طباعهم الجاري على ألسنتهم[٦٨] .

ونقل جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) عن أبي حيان الاندلسي(ت٧٤٥هـ) تعليلاً لكتابة الهمزة التي تقع في أول الكلمة بالألف مطلقاً، سواء فُتحت أم كُسِرَت أم ضُمَّت، وهو « قال أبو حيان : وإنما لم يخالف بها إلى حركتها لأن الهمزة إذا كانت أولاً فهي مبتدأة، والمبتدأة لاتُسَهَّلُ والكتّاب بنوا الخط في الأكثر على حسب تسهيلها لوجهين :

– **أحدهما** : أن التسهيل لغة أهل الحجاز، واللغة الحجازية هي الفصحى، فكان

الكُتّب على لغتهم أولى .

- **والثاني** : أنه خط المصحف ، فكان البناء عليه أولى... [٦٩] .

وإذا تحقق أن المصاحف القديمة التي كتبها الصحابة قد كتبت على تسهيل الهمزة فإن لدينا من النصوص مايؤكد أن تسهيل الهمزة هو الجاري على ألسنة الناس في الحجاز وهو الذي غلب على قراءة قُرَّاء مدن الحجاز الأوائل. قال أبو زيد الأنصاري(ت٢١٥هـ) : أهل الحجاز وأهل مكة والمدينة لا ينبرون[٧٠]. يعني:لايهمزون. وقال ابن الجزرى (ت٨٣٣هـ) : ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقاً، وأبعدها مخرجاً، تنوع العرب في تخفيفه بأنواع التخفيف، كالنقل والبدل وبَيْنَ بَيْنَ والإدغام، وغير ذلك وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفاً، ولذلك أكثر مايرد تخفيفه من طرفهم، كابن كثير من رواية ابن فليح، وكنافع من رواية ورش وغيره، وكأبي جعفر من أكثر رواياته، ولاسيما رواية العمري عن أصحابه عنه، فإنه لم يحقق همزة وصلاً، وكابن محيصن قارئ أهل مكة مع ابن كثير وبعده، وكأبي عمرو بن العلاء، فإن مادة قراءته عن أهل الحجاز، وكذلك عاصم من رواية الأعشى عن أبي بكر من حيث إن روايته ترجع إلى ابن مسعود[٧١].

إن طريقة كتابة الهمزة في المصاحف القديمة، ومذهب القراء في مكة والمدينة، ونطق أهل الحجاز عامة للهمزة كلها تؤكد أن القرآن الكريم قد أنزل بلغة قريش وكُتِبَ بها أيضاً. ولعل بعض القراء يتساءل هنا ويقول إن العربية الفصحى اليوم تجري على تحقيق الهمزة، وإن قراءتنا للقرآن الكريم اليوم تجري على ذلك أيضاً، فكيف حصل هذا وكيف يستقيم القول بنزول القرآن بلغة قريش؟ وهذا الذي قد يقع في نفس بعض القراء له ما يفسره من تاريخ العربية وتاريخ القراءات القرآنية، وهو ما سنخصص له المبحث

الآتي بكامله، لأن هذه القضية كانت أكثر القضايا تأثيراًعلى معالجة موضوع تاريخ العربية الفصحى .

إن النصوص التاريخية واللغوية التي عرضناها في هذا المبحث تؤدي إلى النتيجة التي وضعناها عنواناً للمبحث، وهي نزول القرآن بلغة قريش، ولكن ثمة قضية في التراث العربي يمكن أن تعترض هذه النتيجة، وهي أن عدداً من العلماء ألَّف في (لغات القرآن)[٧٢]، وأوردوا في تلك الكتب عدداً من الكلمات التي تنسب إلى قبائل شتى من العرب، وتفسيرنا لهذه الظاهرة، على الرغم من قلة المعلومات عن تلك الكتب، أن ماورد في القرآن من الألفاظ ونَسَبَه بعض العلماء إلى قبائل معينة من العرب إنما هو من المشترك بين لغة قريش ولغة تلك القبائل لأن لغات العرب ماهي في الواقع إلا لهجات متفرعة عن أصل واحد، التشابه بينها أكثر من الاختلاف .

وإذا كانت بعض الروايات ورد فيها أن كلمات في القرآن جاءت بلسان غير العرب، وأن من وَثَّق تلك الروايات حملها على أنها من المشترك المستعمل في العربية وغيرها من لغات الأمم الأخرى [٧٣]، فإن حمل ماقيل إنه بلغة قبيلة معينة من قبائل العرب على أنه من المشترك المستعمل في لغة قريش وتلك القبيلة أظهر وأيسر، وهذه القضية تحتاج إلى بحث لايحتمله المقام، ولعل ماذكرته هنا كاف في توجيه هذا الاعتراض على نحو لايتنافى مع الحقيقة التي قررناها في هذا المبحث .

المبحث الثالث :الهمز في اللغة العربية

الهَمْزُ في اللغة : الغَمْزُ والضَّغْطُ، وفي الاصطلاح هو النطق بالهمزة محققة، كان

تقول: رأس، وبئر، وشؤم. وسُمِّيَ الهمز في الكلام همزاً لأنه يضغط، والهمزة أحد الحروف التي يتألف منها كلام العرب. ويقال: همزت الحرف فانهمز [٧٤].

وتستعمل كلمة (النَّبْر) مرادفة لكلمة(الهمز)، وسمي الهمز في الكلام نبراً لعلوه على سائر الكلام، والنبرة: الهمزة [٧٥]، وكانت كلمة(النبر) وما اشتق منها أكثر دوراناً على ألسنة الناس في القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، على مايتضح من النصوص المنقولة من تلك الحقبة، لكن الذي استقر في الاستعمال بعد ذلك هو كلمة الهمز ومشتقاتها .

وكانت دراسة الهمزة، من حيث نطقها وكتابتها، ومذاهب العرب والقراء فيها، قد استأثرت بجهود كبيرة من العلماء، قديماً وحديثاً، ولست أقصد في هذا المبحث دراسة كل ذلك، بل سأقتصر على تتبع ظاهرة الهمز في لغات العرب والقراءات القرآنية حتى نقف على تاريخ هذه الظاهرة وتطورها، ونضعها في مكانها الصحيح من تاريخ العربية الفصحى، فإن الباحثين المحدثين يذهبون إلى أن ظاهرة الهمز كانت تمثل مظهراً من مظاهر العربية الفصحى قبل الإسلام، وأن القرآن نزل بالهمز، ومن ثم رفضوا رواية نزول القرآن بلغة قريش، لأن قريشاً لايهمزون. وأعتقد أن ماذهبوا إليه قد بني على أصل غير صحيح، على ما أرجوه أن يتضح في هذا المبحث.

تتفق أقوال علماء العربية الأوائل على أن أهل الحجاز كانوا يُسَهِّلُون الهمزة، وأن بني تميم، وهم من نجد، كانوا يحققون الهمزة، ويردد الدارسون في هذا المجال قول أبي زيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ): أهل الحجاز وهُذَيْل وأهل مكة والمدينة لاينبرون وقف عليها عيسى بن عمر(ت ١٤٩هـ) ، فقال: ماآخذ من قول تميم إلا بالنبر، وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا [٧٦].

واختلف الباحثون المحدثون في تفسير عبارة (وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا) فمنهم من يرى أن ليس لهذا الاضطرار معنى سوى أنهم يهمزون حين يلجأون إلى اللغة النموذجية [٧٧]، ومنهم من يَعُدُّ ذلك تفسيراً ممكنا لكنه يعطي تفسيراً آخر وهو أن يكون المقصود بالاضطرار تحقيق الهمزة التي توجد في أول الكلمة[٧٨]، ومنهم من حمله على اضطرار الشاعر حين يبدل من الحرف همزة إقامة للوزن الشعري [٧٩].

ومهما يكن معنى تلك العبارة فإن هناك نصوصاً أخرى تؤكد ماجاء في قول أبي زيد الأنصاري، فهذا سيبويه يعقد باباً للهمز في الكتاب، يفصل فيه مذاهب العرب في تحقيق الهمزة وتخفيفها، ونجده ينص على أن بني تميم يحققون الهمزة، وأهل الحجاز يسهلونها[٨٠] وقال في نهايته: وقد بلغنا أن قوماً من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون نبيء وبريئة، وذلك قليل رديء[٨١]. وهذا أمر لاينقض القاعدة التي ذكرها لأن بلاد الحجاز واسعة وتضم بيئات مختلفة، ولايستبعد أن يوجد فيها من يحقق الهمزة.

وقول أبي زيد الأنصاري السابق، مع مانقله عن عيسى بن عمر يُظهر مذاهب العرب في نطق الهمزة في زمنهما، وهو القرن الثاني الهجري، ويحتاج الباحث لظاهرة الهمز في العربية إلى معرفة الحالة في القرن الأول، وماقبله إن أمكن ذلك، لأن امتزاجاً لغوياً كبيراً قد وقع بين لغات العرب بعد ظهور الإسلام وانتشاره، وخروج العرب في الفتوح وإقامتهم في الأمصار، وكان ذلك الامتزاج قد ترك آثاره، لاسيما في موضوع الهمز، ولدينا نصوص يمكن أن تساعد في تتبع هذه الظاهرة في العربية .

ومن تلك النصوص ماجاء في الحديث أن رجلاً قال للنبي - صلى الله عليه وسلم:يانبيء الله، فقال:« لاتنبر باسمي»، وفي رواية:« إنامعشر قريش لاننبر» [٨٢] . وهذه الرواية تؤكد أن قريشاً كانوا لايحققون الهمزة في زمانه - صلى الله عليه وسلم -

وهو أمر سبق أن أشرنا إليه حين رجحنا أن المصحف رُسِمَ في خلافة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ على نطق من يسهلون الهمزة .

وهناك رواية عن عبد الله بن عمر (ت٧٤هـ) ـ رضي الله عنهما ـ في إسنادها ضعف ولكن دلالتها تتوافق مع ماتدل عليه النصوص الأخرى ، قال ابن الجزري: وأما الحديث الذي أورده ابن عدي وغيره عن طريق موسى بن عبيدة عن نافع عن ابن عمر قال: (ماهمز رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء، وإنما الهمز بدعة ابتدعوها من بعدهم)، فقال أبو شامة الحافظ: هو حديث لايحتج بمثله لضعف إسناده فإن موسى بن عبيدة هذا هو الربذي، وهو عند أئمة الحديث ضعيف [٨٣]، ونحن لا نرد قول الأئمة في ضعف الحديث، لكن إذا كانت علته(موسى بن عبيدة) فقط، فإن قول ابن سعد فيه: ثقة، وليس بحجة[٨٤] يخفف من ضعف الحديث، ثم إنه يمكن تفسير البدعة هنا على أساس أن أهل الحجاز كانوا لايحققون الهمزة في قراءتهم وكلامهم ، وحين استعاروا ذلك من قراءة غيرهم كان شيئاً جديداً لديهم .

وإذا كان ماجاء في الرواية السابقة صحيحاً فإن ذلك يدل على أن أهل الحجاز كانوا يسهلون الهمزة في القرن الأول، وبدأت تظهر فيهم بوادر التحقيق، لكن الروايات الأخرى تؤكد أن أهل الحجاز لم يتخلوا عن مذهبهم في تسهيل الهمزة بسهولة، فهذا الإمام مالك بن أنس(ت١٧٩ هـ) فقيه المدينة الأكبر سئل عن النبر في قراءة القرآن في الصلاة، فأنكر ذلك وكرهه كراهة شديدة، وأنكر رفع الصوت به [٨٥]. وحج الخليفة المهدي سنة ١٦٠هـ [٨٦]، وكان معه علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩هـ) ، قال المؤرخون: ولما حج المهدي قَدَّمَ الكسائي يصلي بالمدينة،فهمز، فأنكر أهل المدينة عليه، وقالوا: تنبر في مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن؟[٨٧] .

وإذا تعمق الدارس في تتبع القراءات القرآنية في الحجاز وجد أن ظاهرة تسهيل الهمزة كانت غالبة عليها، لاسيما في قراءة القراء الأوائل الذين أدركوا القرن الأول الهجري لكنه يجد أيضاً أن تحقيق الهمزة أخذ يطغى على تسهيلها بعد ذلك، وهناك عوامل وظروف أدت إلى ذلك، يمكن أن نجملها في عاملين: الأول الاختيار في القراءة، والثاني الدراسات اللغوية .

أولاً: الاختيار في القراءة :

لدينا نصوص تؤكد ماذكرناه من غلبة ظاهرة التسهيل على نطق أهل الحجاز للهمزة، في قراءة القرآن وغيره، ولكن تقدم السنين جعل تحقيق الهمزة يظهر في قراءتهم في القرن الثاني خاصة، ونقلنا من قبل قول ابن الجزري: وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفاً ولذلك أكثر مايرد تخفيفه من طرقهم..[88]. ودراسة ظاهرة تسهيل الهمزة في القراءات القرآنية قاطبة تحتاج إلى مجال أوسع من هذا المكان، لكني سأقف عند الظاهرة في قراءتين من قراءات قراء أهل المدينة، الأولى: قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع (ت ١٣٠هـ) وقراءة تلميذه نافع بن عبد الرحمن (ت١٦٩هـ).

أما أبو جعفر فإنه كان يسهل الهمزة، في أكثر رواياته، قال ابن الجزري: ولاسيما رواية العمرى عن أصحابه عنه، فإنه لم يحقق همزة وصلاً [89]. وكان أبو جعفر في رواية غير العمري - إذا التقت همزتان من كلمتين يحقق الأولى ويخفف الثانية، واواً أوياء أو ألفاً بحسب الحركات المصاحبة لهما[90]. وكان يخفف كل همزة ساكنة، وكذلك المفتوحة بعد ضم أو كسر وكذلك المضمومة بعد كسرة، والمكسورة وبعدها ياء، وغير ذلك، على تفصيل تكفلت به كتب القراءات[91].

أما نافع فإن أكثر من روى عنه ترك الهمز في القراءة هو ورش (عثمان بن سعيد المصري ت١٩٧هـ)، ولكنه لم يتعد تسهيل إحدى الهمزتين المجتمعتين من كلمتين، وكذلك تسهيل الهمزة المفردة الساكنة، والمتحركة إذا كانت في موضع الفاء من الفعل حين تتوسط بتقدم شيء عليها.(٩٢).

ويتضح للدارس بروز ظاهرة الهمز في قراءة نافع، بينما كان الغالب على قراءة أبي جعفر التسهيل، كذلك تبرز الظاهرتان في قراءة غيرهما على نحو متفاوت، وهو ماحمل الباحثين في تاريخ ظاهرة الهمز والمؤرخين للعربية على القول بأن القرآن لم ينزل بلغة أهل الحجاز مادام بعض قراء المدينة يحقق الهمزة، وكذلك في روايات من قراءة أهل مكة .

ويمكن تفسير وجود الهمز في قراءة عدد من قراء الحجاز على أساس أن هذه الظاهرة ليست قديمة في قراءتهم ، وإنما اقتبسوها من قراءة غيرهم من قراء الأمصار الأخرى، عن طريق الاختيار، وهو ظاهرة غفل عنها كثير من الدارسين المحدثين، وهي تعني أن القارئ يختار من مجموع ماقرأ به على شيوخه قراءة يلتزم بها ويعلمها للناس ويرويها تلامذته عنه(٩٣)، فإذا كان ترك الهمز غالباً على قراءة أبي جعفر فإن ذلك مُتَأَتٍّ من تقدمه وأخذه عن كبار قراء الصحابة وغيرهم. فقد قرأ على عبد الله بن عباس وأبي هريرة، ويذكر ابن الجزرى أنه صلى بعبد الله بن عمر(ت ٧٤هـ)، وأنه أقرأ الناس قبل وقعة الحَرَّة سنة ٦٣هـ (٩٤)، فقراءته حجازية خالصة، إن صحت العبارة.

أما تلميذه نافع بن عبد الرحمن فإنه عاش بعده أربعين سنة، وأخذ القراءة عنه وعن غيره، ونقل عنه ابن مجاهد أنه قال: قرأت على سبعين من التابعين(٩٥). وكان أشهر أساتذته في القراءة هؤلاء الخمسة: عبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت١١٧هـ)، وأبو

جعفر يزيد بن القعقاع (ت ١٣٠)، وشيبة بن نصاح (ت١٢٠هـ)ومسلم بن جندب الهذلي(ت بعد ١١٠هـ وقيل ١٣٠هـ)، ويزيد بن رومان(ت بعد١٢٠هـ)، وقال نافع : أدركت هؤلاء الخمسة وغيرهم. فنظرت إلى ما اجتمع عليه اثنان منهم فأخذته، وما شذ فيه واحد تركته، حتى ألفت هذه القراءة[٩٦]. وكان لظاهرة الاختيار أثرها العميق في امتزاج قراءات الأمصار، فدخلت عناصر من قراءة الكوفة والبصرة في قراءة أهل المدينة، وعكس ذلك حصل أيضاً، وفي هدي هذه الحقيقة يجب فهم قول نافع: تركت من قراءة أبي جعفر سبعين حرفاً [٩٧].

ولكي يتضح أثر الاختيار في ظاهرة الهمز في قراءة أهل المدينة ننقل هذا الخبر الذي رواه ابن مجاهد عن عيسى بن مينا الملقب قالون (ت٢٢٠هـ)، وهو تلميذ نافع، أنه قال: كان أهل المدينة لايهمزون حتى همز ابن جندب، فهمزوا: مستهزئون واستُهْزِئ[٩٨]. وابن جندب هذا هو مسلم بن جندب الهذلي أحد شيوخ نافع الخمسة المشهورين[٩٩]، وهذا الخبر يمكن أن يفسر لنا الاختلاف في غلبة الهمز على قراءة نافع بعد أن كان الغالب على قراءة أهل المدينة التسهيل على نحو مايظهر في قراءة أبي جعفر.

ونقل أبو بكر الأنباري عن خلف بن هشام البغدادي (ت٢٢٩هـ) أنه قال: وقريش لاتهمز، ليس الهمز من لغتها، وإنما همزت القراء بلغة قريش من العرب[١٠٠] وهذه الرواية تؤكد ماجاء في العرض السابق، لكن يجب ألا نفهم منها أن الهمز لا أصل له في القراءة القرآنية المنقولة عن أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد سبقت في البحث الإشارة إلى الأحرف السبعة في القراءة ، وهذا أبو العالية الرياحي يقول : قرأ على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من كل خمس رجل، فاختلفوا في اللغة، فرضي قراءتهم كلهم، فكان بنو تميم أعرب القوم[١٠١]، وبنو تميم كما تعلم هم أهل

التحقيق، وقد قال ابن قتيبة: فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يُقْرِئَ كل قوم بلغتهم وماجرت عليه عادتهم... التميمي يهمز، والقرشي لايهمز..[١٠٢].

ولعل ماجاء في هذا العرض قد أوضح أثر الاختيار في القراءة على بروز ظاهرة الهمز في قراءة أهل المدينة، وفي اعتقادي أنه يمكن تتبع الظاهرة في قراءة أهل مكة في ضوء هذا المنهج أيضاً، والأمر يحتاج إلى أكثر مما يسمح به المقام، لكن دلالة ماعرضناه صارت واضحة، وهي تفسير ظاهرة وجود الهمز في قراءة أهل الحجاز وهم أهل التسهيل، تلك الظاهرة التي أوهمت كثيراً من الباحثين المحدثين، وبعض العلماء الكبار السابقين، فهذا أبو بكر الباقلاني يقول: ومعنى قول عثمان أنه نزل بلسان هذا الحي من قريش أي معظمه وأكثره نزل بلغتها، ولم تقم حجة قاطعة على أن القرآن بأسره نزل بلغة قريش، بل ثبت أن فيه همزاً، وقريش لاتهمز..[١٠٣]. وهذا ابن عبد البر يقول: قول من قال نزل بلغة قريش، معناه عندي: في الأغلب، لأن لغة غير قريش موجودة في جميع القرآن من تحقيق الهمزة ونحوها، وقريش لاتهمز[١٠٤].

ثانياً : الدراسات اللغوية :

كانت الدراسات اللغوية قد نمت واتسعت في البصرة والكوفة في القرن الثاني الهجري، وكانت لها وجهة ذات أثر في ظاهرة الهمز في العربية، ولعل تلك الوجهة قد تأثرت بالعادات النطقية للعرب النازلين فيهما أو الذين أخذ عنهم العلماء نصوص اللغة في البوادي، فالذين عنهم نقل أكثر لسان العرب هم قيس وتميم وأسد[١٠٥]، وكانت هذه القبائل قد نزل عدد كبير من أفرادها في العراق، مع أعداد أخرى من مختلف القبائل

العربية[١٠٦]، قال الأزدي:فأما ربيعة و تميم وأسد فكانوا بالعراق، وكانت دارهم عراقية[١٠٧]. وكان هؤلاء من أشهر من كان يحقق الهمزة من العرب، فشاع ذلك في العراق لأن أهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة من العرب[١٠٨].

ويبدو أن الصراع اللغوي الذي تمخض عن اختلاط العرب في منازلهم الجديدة في العراق قد انتهى في موضوع الهمزة إلى غلبة التحقيق في لغة العلم والخطابة والمواقف الجادة على الأقل، ولعل اللغويين وجدوا أن تحقيق الهمزة أكثر مناسبة للقياس ووضع القواعد من التخفيف ذي الأشكال المتعددة، فكان ذلك عاملاً في ترسيخ الاتجاه نحو التحقيق .

ومن النصوص التي تؤكد ذلك مارواه ابن سَلاَّم عن مناظرة جرت بين عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي البصري(١١٧هـ)، وأبي عمرو بن العلاء(ت١٥٤هـ)، قال: وكان ابن أبي إسحاق أشد تجريداً للقياس ،وكان أبو عمرو أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها، وكان بلال بن أبي بردة جمع بينهما بالبصرة -وهو يومئذ والٍ عليها، ولاّه خالد بن عبد الله القسري، زمن هشام بن عبد الملك - .. قال أبو عمرو: فغلبني ابن أبي إسحاق بالهمز، فنظرت فيه بعد ذلك وبالغت فيه[١٠٩]، ونقل الزجاجي القصة على هذا النحو:.. وقال أبو عمرو: ما ناظرني أحد قط إلا غلبته وقطعته،إلا ابن أبي إسحاق فإنه ناظرني في مجلس بلال بن أبي بردة في الهمز فقطعني، فجعلت إقبالي على الهمز حتى ماكانت دونه[١١٠] .

وهذه القصة ذات دلالة لاتخفى على القارئ، فأبو عمرو كان من قبيلة تميم أصلاً، لكنه أقام مدة في مكة والمدينة وقرأ القرآن هناك[١١١]، وظهر أثرذلك في قراءته، فإنه كان إذا أدرج القراءة أو قرأ في الصلاة لم يهمز كل همزة ساكنة[١١٢]، ومن ثم لم تستقم

قوانين الهمز عنده في أول الأمر ، لكنه بعد تلك المناظرة اعتنى بالموضوع حتى بلغ الغاية القصوى من ضبطه .

وكانت لعلماء العربية جهود واضحة في ترسيخ شيوع ظاهرة الهمز ، التي كانت بارزة على ألسنة النازلين في العراق من العرب، فهذا عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي الذي ناظر أبا عمرو بن العلاء قد "تكلم في الهمز حتى عُمِل فيه كتاب مما أملاه " (١١٣)، وألف بعده عدد من علماء البصرة في هذا الموضوع فلكل من محمد بن المستنير الملقب بقُطْرُب (ت٢٠٦هـ)، وعبد الملك بن قريب الأصمعي (ت٢١٧هـ) كتاب في الهمز(١١٤)، وألف أبو زيد الأنصاري (ت٢١٥هـ) كتابين، الأول: كتاب الهمز، والثاني كتاب تخفيف الهمز(١١٥) .

وقد نشر منهما كتاب الهمز، الذي قسمه أبو زيد على ثلاثين باباً، وعالج فيه حوالي ٣٠٠ كلمة تحتوي على الهمزة في جميع تصاريفها(١١٦) .

ويترجح لديَّ أن سبب التأليف في هذاالموضوع أن بعض الناس ممن ليس من لغته الهمز كان يخطئ في نطق الكلمات المهموزة، فأراد العلماء أن يبينوا مايهمز وما لايهمز، فكان ذلك عاملاً في تَوَجُّهِ الأنظار نحو الهمز باعتباره ظاهرة تعبر عن درجة عالية من الفصاحة . وللدكتور رمضان عبد التواب تعليل للقضية حيث قال:ولعل السبب في ظهور مثل هذا النوع من التأليف هو أن الناس لم يكونوا يهمزون في كلامهم العامي في حياتهم اليومية، فإذا أرادوا محاكاة اللغة الفصحى في مواقف الجد حدث خلط كبير في همز مالا يستحق الهمز(١١٧). وهذا التعليل مبني على وجود لغة أدبية مشتركة قبل نشأة الدراسات اللغوية في العراق، بل قبل ظهور الإسلام، والذي يظهر لي أن السبب الحقيقي هو أن ظاهرة الهمز قد برزت في لغة الناطقين بالعربية في العراق، واعتنى بها

العلماء وصارت تعد من مميزات الفصاحة، وأدى ذلك تدريجياً أن تنتشر في بلاد الحجاز في قراءة القرآن وفي مواقف الكلام الجادة، وصارت بعد ذلك من مميزات اللغة الفصحى .

ومما يدل على تأثر أهل الحجاز في ظهور تحقيق الهمزة في قراءتهم وكلامهم بنطق غيرهم من العرب ماقاله أبو عمرو الداني(ت٤٤٤هـ) عن كيفية ضبط الهمزات في مصاحف أهل المدينة، فقد روى أن مصاحف المدينة القديمة كانت الهمزات فيها تنقط باللون الأصفر دلالة على تحقيقها، « خلافاً لقراءة أئمتهم، ومذهب سلفهم، على أنهم أخذوا ذلك عن غيرهم، وأنهم اتبعوا في ذلك أهل البصرة، إذ كانوا المبتدئين بالنقط والسابقين إليه »[١١٨] .

فتحقيق الهمزة إذن كان صفة تميز نطق قبائل معينة من العرب قبل الإسلام، لاسيما في بلاد نجد، وكان تسهيلها غالباً على أهل الحجاز، وجاء الإسلام، ونزل القرآن بلغة قريش خاصة، فتلاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه بالتسهيل، وكتبه الصحابة على ذلك النحو أيضاً، حسب ماترجح لدي من العرض السابق في هذا البحث. كما قرأه ناس من العرب بالتحقيق على أساس ماجاء في الرخصة التي تضمنها قوله ـ صلى الله عليه وسلم:(إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ماتيسر منه) .

ومضت سنوات كثيرة وأهل الحجاز يقرأون القرآن بالتسهيل، ولايعرفون التحقيق في كلامهم، حتى نشأت الدراسات اللغوية في العراق متأثرة بنطق العرب النازلين في أمصاره وبقراءة قرائه الذين يغلب في قراءتهم تحقيق الهمزة، فصار التحقيق عنواناً للفصاحة، وأخذ قراء الحجاز يقتبسون قراءة التحقيق من قراءة غيرهم حتى كاد

التسهيل يزول من قراءتهم، وهذا هو تفسيرنا لوجود الهمز في قراءة أهل الحجاز، وبذلك يستقيم القول بنزول القرآن الكريم بلغة قريش .

المبحث الرابع : عربية الحجاز أصل العربية الفصحى

تقسَّم بلاد العرب في الجزيرة على خمسة أقسام: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض واليمن. وهناك تفصيلات في تحديد هذه الأقسام في كتب الجغرافيين القدماء، ويكفي هنا أن نذكر أنهم غير مختلفين في أن اليمن يطلق على جنوب الجزيرة العربية، والعروض على شرقيها، وتهامة على ماحاذى البحر الأحمر، ونجد على وسط الجزيرة حتى أطراف العراق والشام، والحجاز المنطقة الفاصلة بين نجد وتهامة، ويمتد خلالها جبل السراة مقبلاً من بلاد اليمن حتى يبلغ أطراف بلاد الشام، وأشهر مدن الحجاز مكة والمدينة(يثرب) والطائف[١١٩].

ثم إن الله تبارك وتعالى بعث نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والعرب متناؤون في المحالِّ والمقامات، متباينون في كثير من الألفاظ واللغات، ولكل عمارة لغة دلت بها ألسنتهم، وفحوى قد جرت عليها عادتهم[١٢٠]. أما أهل اليمن فإن لغتهم كانت متميزة عن لغة غيرهم من العرب، قال أبوعمرو بن العلاء : مالسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولاعربيتهم بعربيتنا [١٢١] . وأما غيرهم من العرب فإن الاختلاف اللغوي بينهم أقل من ذلك. ويؤكد الباحثون المحدثون ذلك حين يقولون إن العربية تنقسم على قسمين، الأول: العربية الجنوبية وهي لغة أهل اليمن القديمة التي تُعْرفُ عند اللغويين العرب باللغة الحميرية، والثاني: العربية الشمالية، وهي لغة وسط الجزيرة العربية وشماليها[١٢٢].

ويذهب معظم الباحثين المحدثين إلى أن العرب قبل الإسلام كانت لهم لغة أدبية

موحدة، يقولون بها الشعر ويلقون بها الخطب، ولكل قبيلة أوحي أومدينة لهجتها الخاصة التي تستعمل في شؤون الحياة اليومية، على نحو مامضى في المبحث الأول من هذا البحث، ولكن عدداً من الملاحظات جعلتني أتردد في قبول هذه الصورة للغة العربية آنذاك، ويحسن بيان ماقاله علماء اللغة في تعريف اللغة الأدبية وعوامل تكونها، وفي تعريف اللهجة وعلاقتها باللغة الأدبية، ليكون ذلك أمراً يوضح التطور التاريخي للغة العربية الفصحى.

إذا كان صحيحاً قول علماء اللغة: إنه لايتكلم شخصان بصورة واحدة [١٢٣]، فإنه كذلك صحيح أن مجموعة من الأفراد يتكلمون بصورة متقاربة جداً، بحيث يمكن التغاضي عن الفروق الدقيقة في نطقهم، وتتشكل عندئذ جماعة لغوية تشترك مع عدد من الجماعات اللغوية الأخرى في كثير من الظواهر اللغوية التي تسمح أن يتم التفاهم بين أفراد هذه الجماعات. وطريقة كل جماعة من هذه الجماعات في النطق تسمى لهجة، ويتكون من مجموعات تلك اللهجات لغةمعينة. فاللهجة إذن مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها ، و لكنها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ماقد يدور بينهم من حديث، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات. وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي اصطلح على تسميتها باللغة. فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص...[١٢٤].

ويقرر علماء اللغة أن الجماعة اللغوية الواحدة تحرص على أن تستعمل شكلاً للغة

يرتفع عن الخصائص اللهجية المحلية للتعبير عن الفكر والأدب، ومظاهر التواصل الأخرى بين أفراد الجماعة اللغوية، وذلك الشكل هو مايسمونه اللغة المشتركة، فاللغة المشتركة هي الصورة اللغوية المثالية التي تفرض نفسها على جميع الأفراد في المجموعة اللغوية الواحدة (١٢٥).

وتقوم اللغات المشتركة دائماً على أساس لغة موجودة، تتخذ لغة مشتركة من جانب أفراد وجماعات تختلف لديهم صور التكلم، والظروف التاريخية هي التي تفسر لنا تغلب هذه اللغة التي اتخذت أساساً، وهي التي تعلل انتشارها في جميع مناطق التكلم المحلي فهي دائماً لغة وسطى، تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعاً. أما عوامل قيام هذه اللغات المشتركة فترجع إلى التفوق السياسي أو الديني أو الاقتصادي، أو الأدبي أو الاجتماعي(١٢٦). وتقدم العربية الفصحى اليوم مثالاً واضحاً للغة المشتركة، فبينما نسمع مئات اللهجات المحلية في الأقطار العربية نجد العربية الفصحى تستعمل على نحو موحد للتعبير عن قضايا العلم والثقافة والمجالات العامة الأخرى.

ويذهب الباحثون المحدثون إلى أن العربية الفصحى ترجع في نشأتها إلى عصر ما قبل الإسلام، بعد أن توفرت عوامل التفوق للغة قريش فسادت أنحاء الجزيرة العربية، واقتبست ظواهر لغوية كثيرة من لغات القبائل الأخرى، وخرجت عن كونها لغة خاصة بأهل مكة، لتصبح لغة الأدب والمحافل لكل الناطقين بالعربية آنذاك، ومن ثم نزل بهاالقرآن الكريم، وقد سبق بيان ذلك في المبحث الأول .

وألمحت في المبحث الأول أيضاً إلى رأي المحدثين في صفات العربية الفصحى المشتركة وهي :

١ - أنها فوق مستوى العامة، ولايتقنها إلا الخاصة من العرب

٢ – وأنها لم تكن ذات طابع محلي، فهي لاتنتمي إلى لهجة بعينها

٣ – وأنها لم تكن لغة سليقة لكل العرب، خاصة الإعراب، بل للقلة المختارة منهم[١٢٧].

وقد ترجح لدي أن العربية الفصحى، التي نستعملها اليوم في الكتابة والخطابة ونحو ذلك، لاترجع بخصائصها المعروفة إلى عصر يسبق الإسلام، كما أنها تَمُتُّ بسبب قوي إلى لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم، على مابينت في المبحث الثاني، وأن العامل الحاسم في نشوء الفصحى واستبقائها كل هذه الحقب التاريخية المتطاولة هوالقرآن وما أدى إليه من نشوء الدولة الإسلامية التي اتخذت اللغة العربية لغة دين وحضارة .

ولدي من الملاحظات والأسباب ماجعلني أقدم هذا التصور لتاريخ العربية الفصحى، وهي تتلخص في :

أولاً : الجانب اللغوي :

إن المتأمل في منهج علماء العربية المتقدمين في وضع القواعد يجده خالياً من أي إشارة واضحة إلى نطق مشترك للعربية متميز عن نطق القبائل ، بل نلمس أن القاعدة تنبني عندهم على النطق الغالب عند العرب للظاهرة، مع ترجيح نطق أهل الحجاز فإن تساوت الظواهر المتقابلة في الشيوع عرضت كلها، مع النص على الجماعة التي تستعمل كل ظاهرة .

وهذا المنهج كان قد وضع أساسه شيخ المدرسة البصرية أبو عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) وهو أستاذ الخليل بن أحمد، فقد قال عبد الملك بن نوفل:سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء :أخبرني عما وضعت مما سميته عربية، أيدخل فيها كلام العرب كله؟ فقال: لا، فقلت:كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسمي ماخالفني لغات[١٢٨].

ويقرر المحدثون أن الاختلاف بين لهجات اللغة الواحدة يكاد ينحصر في نطق الأصوات ومايتعلق بذلك من ظواهر، أمااختلافات البنية الصرفية أو النحوية فهي أقل[١٢٩]، وإذا رجعنا إلى عبارة علماء العربية المتقدمين في وصف الظواهر الصوتية لانجد مايشير إلى صفات لغوية معينة تنسب إلى الفصحى بل نجدهم يقولون في الهمز : التخفيف لغة قريش وأكثر أهل الحجاز والتحقيق لغة تميم وقيس[١٣٠]. ويقولون في الإمالة : إنها لغة بني تميم والفتح لغة أهل الحجاز[١٣١]. والمحدثون هم الذين قالوا إن تحقيق الهمزة وترك الإمالة من خصائص الفصحى، ويمكن تتبع ظواهر كثيرة من هذا القبيل .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نجد أن أكثر الظواهر اللغوية التي عدت من خصائص الفصحى ترجع إلى لغة أهل الحجاز، ماعدا الهمز الذي بينت عوامل شيوعه في الفصحى بعد الإسلام، وهو في الأصل من خصائص لغة بني تميم وأهل نجد، ولايتسع المجال لعرض كل الظواهر المنصوص عليها، وتكفي الآن بعض الأمثلة[١٣٢]:

١ - ماالنافية المشبهة بليس، تستعمل في الفصحى على نحو مايستعملها أهل الحجاز[١٣٣].

٢ - فتح أوائل الأفعال المضارعة لغة أهل الحجاز، وهو المستعمل في الفصحى، بينما لغة جميع العرب ماعداهم الكسر[١٣٤].

٣ – بنو تميم يقولون: إحدى عَشِرَة، بكسر الشين، وأهل الحجاز يقولون: إحدى عَشْرَة بتسكينها، وهو المستعمل في الفصحى[١٢٥].

٤ – أهل الحجاز يكسرون (أمس) في كل موضع، وبنو تميم يضمونه في الرفع، ويكسرونه في النصب والجر، والفصحى على الأول[١٢٦].

٥ – بنو تميم يكسرون أول صيغة (فعيل) وأهل الحجاز يفتحونها، وهو القياس وعليه الفصحى[١٢٧].

٦ – بنو تميم يقولون في الوقف: هذهْ، بإسكان الهاء، فإذا وصلوا قالوا: هذي فلانة. وأهل الحجاز وغيرهم من قيس ألزموها الهاء في الوقف وغيره[١٢٨].

وقد تبدو هذه الأمثلة شيئاً يسيراً بجانب سعة اللغة وتنوع أساليبها، ولكنها على قلتها تحمل دلالة بينة واضحة على مقدار أثر لغة قريش في الفصحى. ولاينبغي أن ننسى أن اللهجات العربية قد تعرضت بعد الإسلام لأكبر اختلاط لغوي عرفه التاريخ، وقد أدى ذلك أن تتداخل الظواهر اللغوية بحيث لايعدم الباحث ظاهرة تقف بعكس ماتدل عليه الظواهر الأخرى .

ونختم الحديث عن هذا الجانب بالإشارة إلى أن علماء العربية حين يتحدثون عن لغة أهل الحجاز فإنهم يصفونها بما يدل على منزلتها في مجال الاعتداد بها في وضع القواعد فسيبويه يقول: الحجازية هي اللغة الأولى القُدْمى[١٣٩]، وأبو حيان الأندلسي يقول: واللغة الحجازية هي الفصحى[١٤٠]. وهذا لايتعارض مع ماتقرر من قبل من أن معظم من نقل عنه لسان العرب هم قيس وتميم وأسد[١٤١]، وذلك لأن علماء العربية في العراق كان أكثر اتصالهم بهؤلاء ، فأخذوا عنهم ماكان موافقاً لما ورد في القرآن الكريم المكتوب بلغة قريش وضموه

إليه، وعدوا ماخالفه لغات دونوها في الكتب، زادت في إغناء العربية في الألفاظ والأساليب .

ثانياً : الجانب التاريخي :

إن شواهد لغوية تاريخية تؤكد أن وجود لغة أدبية مشتركة قبل الإسلام أمر مشكوك فيه ومن تلك الشواهد نزول القرآن بلغة قريش، فقد تأكد ذلك بما يشبه اليقين، وأنه أنزل بتسهيل الهمزة وكتب في المصاحف كذلك، وظلت قراءة التسهيل مشهورة في الحجاز في القرن الأول، فإذا كان هذا صحيحاً فإنه يعني عدم وجود لغة أدبية مشتركة للعرب قبل الإسلام، فلو كانت موجودة لنزل بها القرآن، ولكان الهمز أولى خصائص تلك اللغة .

وإذا أمعن الدارس النظر في عوامل التوحيد اللغوي في الجزيرة العربية بين القبائل العربية قبل الإسلام لوجدها ليست من القوة بحيث تؤدي إلى فرض لغة واحدة من لغات القبائل على غيرها . والدارسون يذكرون لغة قريش، سكان مكة، على أنها تهيأت لها فرص السيادة قبل الإسلام لعوامل دينية واقتصادية. ولكني لا أتصور أن حضور بعض العرب في موسم الحج أو التقاهم في الأسواق التجارية التي كانت تصاحبها استعراضات أدبية يمكن أن يؤدي إلى سيادة لغة قريش بحيث تصير لغة أدبية مشتركة للعرب جميعاً، وذلك لأنه مع قلة الكتابة سرعان مايمحو النسيان ما يعلق بالذاكرة من ظواهرالنطق القرشي، ولم يبتعد الرافعي عن الحقيقة حين قال: فإن اللغة الأدبية لاتنشأ ولن تستقيم إلا إذا كانت مكتوبة مدونة متدارسة، إذ الكتابة قيد من التغيير والتبديل، وهي نص في عموم الاحتذاء والمحاكاة، لأنها في مكانٍ ماهي في كل مكان غيره[١٤٢] .

ويظهر من رواية نقلها الزبيدي أن لغة موحدة لم تكن قد استقرت بعد حتى

منتصف القرن الثاني الهجري، وهي تحكي محاورة علمية بين عيسى بن عمر الثقفي(ت١٤٩هـ) وأبي عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) وكلاهما من علماء البصرة، قال يحيي بن المبارك اليزيدي: جاء عيسى بن عمر الثقفي - ونحن عند أبي عمرو بن العلاء - إلى أبي عمرو وقال:ياأبا عمرو، ماشيء بلغني أنك تجيزه؟ قال: وماهو؟ قال:بلغني أنك تجيز(ليس الطيب إلا المسكُ) بالرفع، قال: فقال أبو عمرو: نِمْتَ ياأبا عمر، وأدْلَجَ الناس ليس في الأرض حجازي ألا وهوينصب، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع .

ثم أمر أبو عمرو بن العلاء يحيي وخلفاً الأحمر أن يذهبا إلى أبي المهدي - وهو من فصحاء أهل الحجاز، وكان بالبصرة - وأمرهما أن يُلَقِّناهُ الرفع، فقال: ليس هذا من لحني ولالحن قومي، وأن يذهبا إلى المنتجع التميمي ويلقناه النصب فأبى إلا الرفع[١٤٣].

ويذهب الباحثون المحدثون إلى أن اللغة الأدبية المشتركة قبل الإسلام لم تكن لغة سليقة بالنسبة لكثير من العرب، على نحو ما مر في كلامهم، وهذه القضية لاتتناسب مع ما كان عليه العرب قبل الإسلام وفي القرن الأول خاصة من قوة الملكة اللغوية التي كانت تسعفهم في أحرج الأوقات، فنجد العربي يرتجز في ساحة المعركة أو يرتجل القصيدة في المحافل أويلقي الخطبة البليغة المؤثرة في خصومه أو مناسبة، كل ذلك يحصل من غير استعداد، ويأتي في أسلوب قوي مؤثر بليغ، فهل يحصل كل هذا لو كانت اللغة التي يعبر بها لغة مصنوعة؟ إنني أستبعد ذلك، وأعتقد أن كل واحد منهم كان يعبر بلغته التي نشأ عليها في بيته وبين قومه، وهذا يفسر تمكنهم من القول، وسلامة منطقهم من اللحن.

وإذا كانت الدلائل تشير إلى أن العربية الفصحى المشتركة لم يكن لها وجود واضح قبل الإسلام، فإنها لاشك قد تمخضت بعد الإسلام عن لغة أهل الحجاز، وقريش خاصة في ظل عاملين: نزول القرآن بها، والصراع اللغوي الذي أعقب ذلك، وانتهى

بسيادة اللغة الحجازية، بعد أن ترك آثاره عليها، لتصبح اللغة الأدبية المشتركة .

وقد يكون من الأمور غير المتيسرة للبحث الآن إعطاء تاريخ محدد لسيادة اللغة الحجازية ولكن يمكن القول إن بدء ذلك كان مقترناً بنزول القرآن الكريم وانتشار الإسلام، وامتد بعد ذلك قروناً قبل أن تستكمل العربية الفصحى شكلها المستقر، ويمكن أن يكون انتهاء عصور الاحتجاج اللغوي تاريخاً محتملاً لاكتمال تلك السيادة التي حملت في طياتها عناصر لغوية كثيرة من لغات العرب الأخرى خاصة في الجانب الصوتي والمفردات. ويقول المستشرق الألماني يوهان فك عن اللغة العربية في القرن الرابع : وهكذا صارت العربية الفصحى، في أوئل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، لغة للكتابة قطعت جميع أشواط نموها وتكوينها، ولم تعد قابلة لزيادة من النمو الحي. فقد غدت لغة قديمة نموذجية، وتغلب إشعاع الجمال الفني في قوالبها على الفاقة الخشنة والعراء المستكره في لهجات البدو المعاصرين[١٤٤].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

المبحث الخامس : الشعر الجاهلي واللغة الفصحى

هناك عقبة كبرى تقف في وجه الصورة التي رسمناها لتكون العربية الفصحى، وهي الشعر الجاهلي، الذي جاءنا في لغة أدبية موحدة في شكلها العام. وكانت هذه اللغة الموحدة أكبر دليل على وجود اللغة العربية المشتركة قبل الإسلام لدى الباحثين المحدثين، وهي التي حملتهم على رفض الفكرة القائلة بنزول القرآن بلغة قريش، ودعتهم إلى القول بنزوله بتلك اللغة .

وهذه قضية لاتخلو من تعقيد، ونحن لانريد أن نخوض فيها على نحو مفصل هنا، وما سنعرضه هنا لايمثل فكرة متكاملة، لكنه محاولة لفهم طبيعة لغة الشعر الجاهلي،

وهي محاولة بعيدة كل البعد عما ذهب إليه طه حسين في نظريته القائلة بانتحال الشعر الجاهلي وتتلخص هذه المحاولة في أن الشاعر الجاهلي كان يقول قصائده بلغته التي ينطقها قومه، وأن تلك اللغة لم تكن بعيدة عن أفهام السامعين من خارج قبيلته، فالتميمي ينظم بلغة قومه والحجازي ينظم بلغة قومه، وهكذا، ويظل القدر المشترك من خصائص العربية بين تلك اللغات هو العامل المساعد على تفهم ذلك الشعر من أفراد مختلفي الانتماءات القبلية والإقليمية .

وفي أثناء رحلة الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى عصر التدوين في القرن الثاني تعرض على ألسنة الرواة إلى تغييرات من المحتمل أنها أدت إلى تنقية ذلك الشعر من الاضمحلال لكنه في الوقت نفسه لايمنع من دخول التغيير المتعمد أوالعفوي في جزئيات البيت الشعري .

واختفاء آثار الخصائص اللغوية المحلية من الشعر الجاهلي لم يكن تاماً، فهناك بقايا منها تظهر في عدة مجالات، وتدل تلك البقايا على أن لغة الشعر الجاهلي لم تكن موحدة، أي أن لغة أدبية موحدة لم تكن موجودة أوبارزة في ذلك العصر، وهذه القضية قد تحتاج إلى كثير من الدلائل حتى يمكن أن تقبل على أنها حقيقة مسلمة، ولكني وأنا أستعرض مراحل تكون العربية الفصحى وجدت أن من العقبات التي تقف دون التسليم بالنتيجة التي انتهيت إليها ـ لغة الشعر الجاهلي، ومن ثم اتجهت إلى هذا الميدان وتجمعت لدي عدة ملاحظات يمكن أن يعتمد عليها في إزالة هذه العقبة، وتتلخص تلك الملاحظات بالأمور الآتية :

١ - ملاحظات النحويين :

يتحدث النحاة في حالات كثيرة عن روايات للنصوص الشعرية مسندة إلى قبائل

معينة تخالف رواية غيرها، وفي الكتاب لسيبويه أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة، من أوضحها دلالة كلامه في أحد أبواب الاستثناء، وهو قوله[١٤٥]:

هذا باب يختار فيه النصب لأن الآخِر ليس من نوع الأول : وهو لغة أهل الحجاز وذلك قولك : ما فيها أحدٌ إلا حماراً ، جاءوا به على معنى ولكنَّ حماراً ، وكرهوا أن يبدلوا الآخر من الأول ، فيصير كأنه من نوعه، فحمل على معنى ولكن، وعمل فيه ماقبله كعمل العشرين في الدرهم .

وأما بنو تميم فيقولون: لا أحد فيها إلا حمارٌ، أرادوا ليس فيها إلا حمارٌ، ولكنهم ذكروا أحداً توكيداً لأن يعلم أن ليس فيها آدمي، ثم أبدلوا فكأنهم قالوا: ليس فيها إلا حمارٌ... وعلى هذا أنشدت بنو تميم قول النابغة الذبياني :

إلاَّ أَوارِيُّ لأياً مــــا أُبيِّنُهــــا   والنُّؤْيُ كَالْحَوْضِ بالمَظْلُومةِ الجَلَدِ

وأهل الحجاز ينصبون. ومثل ذلك قوله :

وبلدةٍ ليس بهــــا أنِيسُ   إلاَّ اليعـافـيـرُ وإلاَّ الْعِيسُ

جعلها أنيسها، وإن شئت كان الوجه الذي فسرته في الحمار أول مرة، وهو في كلا المعنيين إذا لم تنصب بدل .

ومن ذلك في المصـادر: ماله عليــه سلطان إلا التكلف، لأن التكلف ليس من السلطان وكذلك: إلا أنه يتكلف، هو بمنزلة التكلف، وإنما يجيء هذا على معنى ولكن. ومثل ذلك قوله عز وجل ذكره :(مالهم به من علم إلا اتباعَ الظن)(النساء١٥٧)، ومثله:(وإن نشأ نغرقهم فلا صريخَ لهم ولاهم ينقذون إلا رحمة منا)(يس ٤٣ ـ ٤٤).

ومثل ذلك قول النابغة :

حَلَفْتُ يميناً غـيـرَ ذي مَثْنَوِيَّةٍ ولا عِلْمَ إلاَّ حُسْنَ ظَنٍّ بِصَاحِبِ

وأما بنو تميم فيرفعون هذا كله، يجعلون الظن علمهم، وحسن الظن علمه، والتكلفَ سلطانه، وهم ينشدون بيت ابن الأيهم التغلبي رفعاً :

ليس بيني وبين قيسٍ عتابُ غيرُ طعنِ الكُلى وضربِ الرقابِ

جعلوا ذلك العتاب .

وأهل الحجاز ينصبون على التفسير الذى ذكرنا .

ويستخلص من هذا النص أمران، الأول: أن القاعدة النحوية اعتمدت على صور النطق اللهجية، فيتقابل نطق أهل الحجاز ونطق بني تميم، ولا مكان لشيء اسمه العربية الفصحى أو اللغة الأدبية المشتركة. والثاني: تعدد رواية النصوص الشعرية تبعاً للانتماء القبلي لراوي النص، وهذا يعني أن النصوص الشعرية كانت تتعرض للتغيير حتى تناسب السليقة اللغوية للراوي. ويمكن أن تكون هذه الظاهرة قد أخفت بعضاً من الخصائص اللغوية المحلية التي كانت في الشعر الجاهلي.

ووجدت في كتاب(معاني القرآن) للفراء الظاهرة نفسها في مواضع كثيرة، منها قوله وهو يتحدث عن إعراب (كل) في قوله تعالى:(وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه):

« وقال الآخر :

قَدْ عَلِقَتْ أُمُّ الخِـيـارِ تَدَّعِي عليَّ ذنبـاً كلُّه لم أَصْنَعِ

رفعاً، وأنشدنيه بعض بني أسد نصباً ». (١٤٦)

ومن ذلك قوله:« أنشدني بعض بني عقيل:

وحتى رأينا أَحْسَنَ الفعلِ بيننا مُسَاكَتَةً لا يَقْرِفُ الشرَّ قارفُ

ينشدُ رفعاً وجزماً. وقال الآخر:

لو كنتَ إذ جئتنا حاولْتَ رُؤْيَتَنَا أو جئتنا ماشياً لا يُعْرَفِ الفرسُ

رفعاً وجزماً»(١٤٧) يريد الفعلين: يقرف، ويعرف.

ومنه أيضا قوله:« أنشدني بعضهم:

يا سيداً ما أنت من سيِّدٍ موطَأ الأعقابِ رَحْبِ الذراع

أنشدنيه بعض بني سليم(موطأُ) بالرفع، وأنشدنيه الكسائي (موطأِ) بالخفض (١٤٨).

٢ - تعدد صور الرواية :

من اللافت للنظر في الكتب التي تهتم برواية الشعر القديم، والجاهلي منه خاصة، اختلاف رواية أبيات كثيرة من القصيدة الواحدة، في حركة إعرابية أو إبدال حرف أوكلمة أو أكثر. وقمت بمحاولة أولية في تتبع رواية بعض قصائد الشعر الجاهلي المشهورة، فوجدت أن قصيدة النابغة التي مطلعها : (يا دارُ ميَّةَ بالعلياء فالسَّندِ) قد تعددت رواية ثمانية وعشرين بيتاً من أبياتها البالغة خمسين بيتاً، وذلك في كتاب(شرح

القصائد التسع المشهورات) للنحاس[149]. ووجدت أن قصيدة لبيد التي مطلعها (عفتِ الديارُ محلُّها فمُقَامُهَا) قد تعددت رواية سبعة وثلاثين بيتاً من أبياتها التسعة والثمانين، في الكتاب نفسه[150]. واستعرضت كتاب النوادر لأبي زيد ووجدت فيه عشرات الأمثلة على الاختلاف في رواية الشعر القديم[151].

ولعل الرواية الشفهية للشعر القديم قبل عصر التدوين في القرن الثاني الهجري كانت السبب الأكبر في تلك الاختلافات[152]. وكان ابن هشام (عبد الله بن يوسف ت٧٦١هـ) قد قال في كتابه شرح الشواهد: كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها، ومن ههنا كثرت الروايات في بعض الأبيات[153].

وقال مصطفى صادق الرافعي: فإن العرب إنما كانوا يحفظون ويتناقلون، وهم قوم، كما قيل، أناجيلهم في صدورهم، فلم يكتبوا ولم يدونوا، ومع الحفظ النسيان قليله وكثيره فإذا نسي أحدهم الكلمة في بيت من الشعر وضع غيرها في مكانها ليقيمه، إذ لابد أن يرويه أو يتمثل به، ثم يكون غيره لم ينس فيروي الشعر على أصله، فتجتمع روايتان، فإذا كانوا ثلاثة فتلك ثلاث روايات كل منها بلفظ غير الأخرى...[154].

ويمكن أن نستخلص من ذلك أن الشعر الجاهلي قد تعرض في أثناء الرواية الشفهية لبعض التغيير، ولا استبعد أن يكون ذلك التغيير قد أخفى بعض الظواهر اللغوية المحلية، ولاننسى أن كثيراً من مظاهر الاختلاف بين لغات العرب كان في ظواهر صوتية قد تخفيها نظم الكتابة العربية، وأن تلك الظواهر يمكن أن تتغير في النطق من غير أن يخل ذلك بالوزن الشعري .

٣ - وجود بقايا لظواهر لهجية في الشعر الجاهلي :

كتب الدكتور هاشم الطعان رسالته في موضوع (الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة)(١٠٥) ، وتحدث في الفصل الخامس منها عن (الأدب الجاهلي واللهجات) تتبع فيه السمات اللهجية في نماذج للشعر الجاهلي من الحجاز (شعر هُذَيْل) ومن نجد(شعر تميم) ومن اليمن(نماذج متعددة)(١٠٦)، وانتـــهى من ذلك إلى استنتاجات لخصها في الفصل السادس من الرسالة. ويهمنا هنا نقل تصوره عن لغة الشعر الجاهلي، مع ملاحظة أنه كان متأثراً بالرأي السائد القائل بوجود لغة أدبية مشتركة أو عربية فصحى في العصر الجاهلي، يقول: ومن كل ماتقدم يستطيع الباحث أن يجزم أن الصورة اللغوية الحقيقية للأدب الجاهلي كانت كما يأتي :

١ – ينبغ الشاعر في القبيلة، فينظم الشعر، ويخطب الخطيب ويطلق المثل، كل ذلك بلهجة القبيلة نفسها التي لاتبعد كثيراً عن لهجات القبائل المجاورة ولا عن لغة الأدب العامة لما تقدم من ضآلة الفروق بين اللهجات .

٢ – يشيع شعر الشاعر ويُروَى ويُنشَد في المواسم والأسواق والحج والأسمار.

٣ – يكون الراوية أحياناً من غير قبيلة الأديب فيروي أدبه إما بلهجته ـ أي لهجة الراوية ـ أو باللغة الأدبية التي كانت تنمو باطراد..

٤ – وحين يشيع شعر الشاعر ويصبح مشهوراً ويجد نفسه أهلاً لإنشاد شعره خارج نطاق قبيلته في المواسم والأسواق حيث كانت تضرب القبب للمحكمين كان الشاعريسمو بلغته عن الصفات اللهجية الضيقة ويحاول أن ينظم بدءاً باللغة الأدبية التي كانت مستمرة في التوسع والغنى على حساب

اللهجات نفسها ....[١٥٧].

وهذه النتيجة التي انتهى إليها الباحث تلتقي مع ما نتصوره للغة الشعر الجاهلي إلا ماورد في النقطة الرابعة، فإن ماذكره من أن الشاعر بعد أن يشتهر يحاول أن ينظم باللغة الأدبية - أمر لا نجد مايشير إليه على نحو واضح.

وبعد هذا العرض الموجز فإن لغة الشعر الجاهلي لم تعد تشكل عقبة تحول - في نظري - دون قبول الفكرة التي انتهى إليها البحث في الصفحات السابقة، ومع ذلك فإني مقتنع بأن لغة الشعر الجاهلي تحتمل مزيداً من التدقيق والتأمل، وقد تساعد نتيجة البحث في إعادة قراءة الشعر الجاهلي على نحو جديد ودراسته.

المبحث السادس : علاقة العربية الفصحى بقراءة القرآن الكريم

إن القرآن الكريم هو كتاب العربية الأول، يتخذ الأدباء والخطباء والمتحدثون بلاغته وفصاحته مثالاً يحتذونه، وقد يبدو عنوان هذا المبحث لذلك غريباً لأول وهلة، إذ كيف يصح البحث عن العلاقة بين العربية الفصحى وقراءة القرآن في الوقت الذي يمثل فيه القرآن النموذج الأعلى للعربية الفصحى؟ لكن البحث في الظواهر الصوتية التي تميز العربية الفصحى وموازنتها بالظواهر الصوتية التي تبدو في القراءات القرآنية تجعلنا نكتشف أن هناك تماثلاً قد يصل إلى حد التطابق بين العربية الفصحى وقراءة عاصم في تلك الظواهر، وهذه القضية هي التي نريد أن نوضحها في هذا المبحث .

فالمعروف اليوم أن قراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي (ت١٢٧هـ) هي القراءة السائدة في معظم البلدان الإسلامية، عدا المغرب وبعض أنحاء أفريقية، ونلاحظ بشكل

واضح التشابه الكبير بين الفصحى وقراءة عاصم في ظاهرتي تحقيق الهمزة وترك الإمالة، فكيف تحقق هذا وفي أي وقت؟ وهل كان انتشار قراءة عاصم قد أسهم في التزام الفصحى بذلك أو كان تميز الفصحى بذلك سبباً في انتشار قراءة عاصم؟ هذا ماسوف أحاول تتبعه في هذا المبحث ، للوقوف على عامل آخر ربما أسهم في تكوُّن العربية الفصحى ، وللكشف عن أصل هذا التشابه في الظواهر الصوتية التي أشرت إليها ولتحديد جوانب التأثر والتأثير في ذلك .

أولاً: قراءة عاصم

قراءة القرآن سُنَّة يأخذها الآخِر عن الأول[١٥٨]، وقد تعلم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قراءة القرآن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتلقى التابعون القرآن عن الصحابة وتعلموا منهم قراءته، فنشأت طبقة من العلماء بالقرآن في الأمصار الإسلامية أخذوا علمهم من الصحابة، وخَلَفهم تلامذتهم من تابعي التابعين، الذين ظهر فيهم علماء تجردوا للقراءة واشتدت بها عنايتهم، حتى صاروا بذلك أئمة يأخذها الناس عنهم، خاصة في الأمصار الخمسة: مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام[١٥٩]، ومن أشهرهم القراء السبعة الذين عد ابن مجاهد قراءتهم أصح القرءات وأشهرها، وهم نافع، وابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو بن العلاء، وابن عامر[١٦٠].

وترجع قراءة عاصم التي يقرأ بها أكثر المسلمين اليوم إلى الكوفة، وقد يغنينا في توضيح تاريخ القراءة فيها ماقاله ابن مجاهد، رحمه الله: وأما أهل الكوفة فكان الغالب على المتقدمين من أهلها قراءة عبد الله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ لأنه هو الذي بعث به إليهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ ليعلمهم، فأُخِذَت عنه قراءته قبل

أن يجمع عثمان ـ رضي الله تعالى عنه ـ الناس على حرف واحد، ثم لم تزل في صحابته من بعده يأخذها الناس عنهم .. فلم تزل قراءة عبد الله بالكوفة لايعرف الناس غيرها، وأول من أقرأ بالكوفة القراءة التي جمع عثمان ـ رضي الله تعالى عنه ـ الناس عليها أبو عبد الرحمن السُلَمي، واسمه عبد الله بن حبيب، فجلس في المسجد الأعظم ونصب نفسه لتعليم الناس القرآن ولم يزل يقرئ بها أربعين سنة.. وكان أخذ القراءة عن عثمان وعن علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وأُبَيّ بن كعب ـ رضي الله تعالى عنهم. وكان يقول: قرأت على أمير المؤمنين علي – رضي الله تعالى عنه – القرآن كثيراً ، وأمسكت عليه المصحف فقرأ عليٌ وأقرأت الحسن والحسين –رضي الله عنهما– حتى قرأ عليٌ القرآن ، وكانا يدرسان على أمير المؤمنين عَليّ –رضي الله عنه –فربما أخذ عَلَيّ الحرف بعد الحرف.. فلما مات أبو عبد الرحمن ـ رحمه الله تعالى ـ خلفه في موضعه أبو بكر عاصم بن أبي النُجُود[١٦١].

وكان عاصم قد قرأ على زِرُ بن حُبَيْش، أحد أشهر تلامذة عبد الله بن مسعود في الكوفة، وقرأ أيضاً على أبي عمرو سعد بن إياس الشيباني، إضافة إلى أبي عبد الرحمن السلمي[١٦٢].

وأخذ القراءة عن عاصم ثمانية وأربعون من الأئمة والعلماء[١٦٣]، ذكر منهم ابن الجزري أكثر من ثلاثين[١٦٤]. لكن أشهر من روى عنه القراءة اثنان هما أبو بكر بن عياش، وحفص بن سليمان، وانتشرت قراءة عاصم من رواية حفص خاصة .

ثانياً: ظواهر صوتية مشتركة

لاحظ اللغويون القدماء أن تحقيق الهمزة من خصائص لغة قبائل تميم وقيس وأن تسهيلها من خصائص لغة أهل الحجاز عامة وقريش خاصة[١٦٥]. وهذا أمر سبقت

الإشارة إليه على نحو مفصل، لكن الذي نريد أن نقرره هنا هو أن تحقيق الهمزة صار يعد من خصائص العربية الفصحى[١٦٦]، ويقابل ذلك التزام تام بتحقيق الهمزة في قراءة عاصم في جميع أحوالها، سواء كانت مفردة أم مقترنة بهمزة أخرى[١٦٧].

أما الإمالة، وهي النطق بالألف منحواً بهانحو الياء قليلاً أو كثيراً، فإنها كانت لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس، ويقابلها الفتح وهو لغة أهل الحجاز[١٦٨]، وتباين القراء في الأخذ بالإمالة في القراءة على نحو فصلته كتب القراءات، لكن عاصماً كان الغالب على قراءته الفتح، فلم يرو عنه حفص الإمالة إلا في حرف واحد، هو قوله تعالى (مــجــراها) (هود٤١)[١٦٩]، والإمالة متروكة في العربية الفصحى اليوم، إذ يحرص المتحدثون بها على الفتح دائماً .

إن بروز ظاهرتي تحقيق الهمزة وترك الإمالة في قراءة عاصم يرجع - في ظني - إلى تعدد مصادر قراءة عاصم، فإن قراءته جمعت بين قراءة أهل المدينة وقراءة أهل الكوفة، ومن خلال ظاهرة الاختيار في القراءة، التي أشرنا إليها من قبل، تمكن عاصم من تأليف حروف قراءته على هذا النحو الذي جاء متوافقاً مع خصائص ماصار يعرف فيما بعد بالعربية الفصحى، التي استمدت أكثرخصائصها من لغة أهل الحجاز.

وقد يظن ظان أن عاصماً حين اختار حروف قراءته كانت العربية الفصحى هي المثال الذي نسج على منواله، لكن هذا يقتضي وجود الفصحى في حياة عاصم الذي توفي في الكوفة سنة ١٢٧هـ، وهو أمر غير مؤكد الوجود، على نحو ماتبين في المباحث السابقة .

ولدينا مثال يؤكد مانذهب إليه وهو التقاء الهمزتين في كلمة واحدة أو كلمتين، قال سيبويه: واعلم أن الهمزتين إذا التقتا وكانت كل واحدة منهما من كلمة فإن أهل التحقيق

يخففون إحداهما ويستثقلون تحقيقهما لما ذكرت لك، كما استثقل أهل الحجاز تحقيق الواحدة. فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فَتُحَقَقا[١٧٠]. وقال واعلم أن الهمزتين إذا التقتا في كلمة واحدة لم يكن بد من بدل الآخرة[١٧١].

إن كلام سيبويه المتوفى في حدود ١٨٠هـ، ويؤيده النحويون الذين جاءوا من بعده[١٧٢]. يدل على أنه لايجوز عند النحاة اجتماع همزتين في كلمة أو كلمتين فتحققا، ولابد من تخفيف إحداهما على الأقل، ولو كان عاصم ينسج على صورة العربية التي رسمها النحاة لما وجدناه يحقق الهمزتين سواء كانتا في كلمة أم في كلمتين [١٧٣]، وإنما كان عاصم يستهدي بالرواية عن شيوخه، ويسترشد بفصاحته ومعرفته التامة بالعربية، ولا تَفْهَم من هذا الكلام أن عاصماً كان يجتهد برأيه في اختيار وجوه قراءته، وإنما نقصد أنه حين كان يختار مايقرأ به ويُعلِّمُه، مما رواه عن شيوخه، كان يتوخى الأكثر فصاحة واطراداً في العربية .

وهذه الملاحظة تثير سؤالاً هو: هل يعني ذلك أن قراءة عاصم أسهمت في تكون العربية الفصحى من بعض الوجوه، خاصة أن خصائصها قد تبلورت قبل عصر النحاة الكبار؟ إن تقرير الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى كثير من التتبع والوقوف على مراحل تطور القراءات ومعرفة تفصيلات قد لايتوفر منها في الوقت الحاضر إلا القليل .

ومع معرفتي أن الظواهر الجزئية التي أشرت إلى بعضها لايمكن تعميمها بسهولة إلا أن الباحث المدقق لايجد بُدًا من الوقوف عندها واستخلاص دلالتها، عسى أن تكون أساساً يمكن البناء عليه، وأجد أن من المفيد أن أختم هذا المبحث بجملة حقائق تاريخية تتعلق بانتشار قراءة عاصم لعلها تساعد يوماً في الإجابة عن السؤال الخاص بالعلاقة بين العربية الفصحى وقراءة القرآن الكريم من حيث التأثر والتأثير.

ثالثاً : انتشار قراءة عاصم وأثر ذلك في العربية الفصحى

كان القرن الثاني عصر مشاهير القراء الذين اقتدى الناس بهم في القراءة، في زمانهم وفي العصور اللاحقة، ومن بينهم القراء السبعة الذين جمع ابن مجاهد قراءتهم في كتاب السبعة، واتفق المسلمون على صحة قراءتهم وتواترها، وبينما كان علماء القراءة يحرصون على رواية القراءات السبع وغيرها كان جمهور الناس يكتفون بضبط قراءة واحدة يتلون بها كتاب الله تعالى، وأدى ذلك خلال القرون المتلاحقة إلى انتشار بعض القراءات وانحسار بعضها بحيث صارت لاتعرف إلا من الكتب ولا يضبطها إلا المتخصصون بدراسة القراءات وروايتها .

وتسود اليوم قراءة عاصم من رواية تلميذه حفص في أكثربلاد المسلمين وتضبط بها المصاحف المطبوعة، عدا بلاد المغرب فإن قراءة نافع هي السائدة هناك، وهذه الحالة ليست وليدة عصرنا، وإنما هي قديمة مضت عليها قرون. ولانزال نحتفظ ببعض شواهد التطور الذي أدى إلى هذه الحالة، نعرضها مع علمنا بوجود فجوات تاريخية قد يتمكن الباحثون يوماً من إتمامها .

ذكر علم الدين السخاوي أن صالح بن أحمد بن حنبل قال: سألت أبي: أي القراءة أحب إليك؟ فقال :قراءة نافع. قلت: فإن لم توجد ؟ قال: قراءة عاصم[١٧٤]، وكانت وفاة الإمام أحمد بن حنبل سنة ٢٤١هـ.

وقال مكي بن أبي طالب القيسي(ت٤٣٧هـ): فقراءته مختارة عند من رأيت من الشيوخ، مقدمة على غيرها، لفصاحة عاصم، ولصحة سندها، وثقة ناقلها[١٧٥]، وهذه ثلاثة أسباب ذكرها مكي يحسن الوقوف عندها .

أما فصاحة عاصم فهذا أمر نص عليه تلامذته ومعاصروه، فقد قال تلميذه أبو بكر بن عياش: كان عاصم نحوياً فصيحاً[١٧٦] وقال حسن بن صالح : مارأيت أحداً كان أفصح من عاصم بن أبي النجود، إذا تكلم كاد يدخله الخيلاء[١٧٧]. وقال ابن مجاهد: كان عاصم متقدماً في زمانه مشهوراً بالفصاحة معروفاً بالإتقان[١٧٨].

وأما صحة سند قراءته فذلك لأن عاصماً كان قريب العهد من عصر الصحابة، وهو معدود في التابعين [١٧٩] لكن شيوخه في القراءة كانوا من كبار التابعين، وأشهرهم أبو عبد الرحمن السلمي، وزر بن حبيش، اللذان أخذا قراءتهما عن علماء الصحابة بالقراءة ليس بينهما وبينهم أحد، وهم: عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم[١٨٠].

وأما ثقة نقلة قراءة عاصم، فقد قال علم الدين السخاوي: وروى عنه القراءة ثمانية وأربعون من الأئمة والعلماء[١٨١] . ليس من هدف البحث هنا تتبع أخبارهم، ولكن يكفينا الوقوف على خبر اثنين منهم، وهما أشهر رواة قراءة عاصم : أبو بكر شعبة بن عياش وأبو عمر حفص بن سليمان الأسدي البزاز، حيث تعتمد كتب القراءات عليهما في ذكر قراءة عاصم .

أما أبو بكر شعبة فإنه كان لايكاد يُمَكِّن من نفسه من أراد أخذ قراءة عاصم منه[١٨٢]. كما أنه قطع الإقراء قبل موته سنه ١٩٣هـ بسبع سنين، وقيل بأكثر[١٨٣]، ولعل هذا هو السر في انتشار قراءة عاصم من رواية حفص الذي كان متفرغاً للقراءة، بينما كان أبو بكر مشتغلاً برواية الأحاديث إلى جانب القراءة،ومن ثم قال يحيى بن معين: هو أصح قراءة من أبي بكر وأبو بكر أوثق منه ، يعني في الحديث[١٨٤].

وكان حفص ربيب عاصم، ابن زوجته، وكان ينزل معه في دار واحدة، فقرأ عليه

القرآن مراراً، حتى صار أضبط من روى القراءة عن عاصم[١٨٥]، ولم يلبث حفص أن غادر الكوفة فأقام في بغداد . وذكر الخطيب البغدادي أنه كان ينزل في الجانب الشرقي من بغداد في محلة سماها سويقة نصر، وأنه لو رأيته لقرت عينك به علماً وفهماً[١٨٦]، فأقرأ بها، وجاور بمكة فأقرأ بها أيضاً[١٨٧]. وذكر أبو بكر الأنباري أن الفضل بن يحيى أقام بمكة مجاوراً حتى أخذ القراءة عن أبي عمر حفص بن سليمان[١٨٨]، ولانعلم مقدار مكث حفص في بغداد ولا مجاورته في مكة، ولكننا نعلم أنه أقرأ القرآن فيهما، وأنه توفي سنة ١٨٠هـ أو بعدها[١٨٩].

ولعل فصاحة عاصم، وعلو إسناده قراءته ، وضبط تلامذته ونشاطهم في تعليم قراءته كانت السبب في إنتشار قراءته كما ذكر مكي بن أبي طالب، وليس من اليسير القول إن قراءة عاصم سادت في بلدان المشرق الإسلامي في قرن معين، ولكن لدينا روايات وأقوال توضح لنا جانباً من هذه القضية الكبيرة، من ذلك أن الخطيب البغدادي ذكر أحمد بن سهل الأشناني المتوفى سنة ٣٠٧هـ، وقال عنه: وهوأحد القراء الموجودين، قرأ على عبيد بن الصباح، روايته عن حفص بن سليمان حرف عاصم بن أبي النجود، واشتهر بهذه القراءة[١٩٠].

وتمضي قرون حتى نصادف قول أبي حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ) الذي ينص فيه على أن قراءة نافع هي التي ينشأ عليها أهل المغرب وأن قراءة عاصم هي القراءة التي ينشأ عليها أهل العراق[١٩١]. وهذا دليل تاريخي قاطع بانتشار قراءة عاصم في العراق كله في القرن الثامن الهجري.

ونلتقي بنص آخر من القرن الثاني عشر الهجري يدل على انتشار قراءة عاصم إلى مناطق خارج العراق، فهذا محمد المرعشي المتوفى سنة ١١٥٠هـ، يقول: والمأخوذ به

في ديارنا قراءة عاصم، ورواية حفص عنه[١٦٢]. وهو يعني بلدته مرعش وهي مدينة بين الشام وبلاد الروم[١٦٣]، وهي اليوم تابعة لتركيا تقع جنوبيها .

ولا أشك في أن البحث يمكن أن يؤدي إلى تحديد أكثر لمراحل انتشار قراءة عاصم، ويمكن أن يستند في ذلك إلى الأقوال الصريحة مثل قول أبي حيان ومحمد المرعشي، ويمكن أن يستفيد أيضاً من ملاحظة المؤلفات المستقلة في قراءة عاصم، فليس مصادفة أن نجد محمد بن أحمد السلمي (ت٣٥٥هـ) مثلاً يؤلف كتاب (مفردة عاصم) منذ القرن الرابع الهجري، مع علمنا أن علماء آخرين كتبوا مفردات في قراءات غيره من القراء، كذلك هناك وسيلة أخرى هي تتبع المصاحف المخطوطة والتدقيق في القراءة التي ضبطت بها، فلا أشك أننا سوف نستطيع أن نقول إن مصاحف قرنٍ ماقد ضبطت كلها بقراءة عاصم أي إن الناس في ذلك القرن كانوا يقرؤون بقراءة عاصم، في البلد الذي كتبت فيه تلك المصاحف، وهذه قضية لانملك الآن ما يساعد على البدء بها، ولكننا ننبه الباحثين عليها .

وخلاصة القول في هذا الأمر أن قراءة عاصم انتشرت في الأمصار الإسلامية في وقت مبكر، وسادت في كثير من البلدان لاسيما في العراق وماحوله من بلدان المشرق الإسلامي منذ القرن الثامن الهجري في الأقل، وأن ذلك قد ساعد على ترسيخ خصائص العربية الفصحى التي تلتقي في كثير منها بقراءة عاصم، فمما لاشك فيه أن تعلم المسلمين قراءة عاصم منذ الصغر وقراءتهم القرآن بها بعد ذلك أمر يؤدي إلى أن تأخذ العربية الفصحى على ألسنة المتكلمين بها شكلاً يماثل ما اعتادوا عليه في قراءة القرآن الذي هو المثل الأعلى للفصاحة والبلاغة .

وقد تكون النتيجة التي انتهى إليها هذا المبحث في الكشف عن العلاقة بين العربية الفصحى وقراءة القرآن الكريم متواضعة، ولكني أجد العذر في أن هذا ميدان لم

يطرق من قبل وأنه واسع غير محدد المعالم، وحسبي أني قد خطوت بالبحث في هذا الميدان خطوات أدعو الله تعالى أن تكون صحيحة ونافعة .

خاتمـــة

إن أهم القضايا التي عالجها البحث قضيتان، الأولى تحديد اللغة التي أنزل بها القرآن الكريم، والثانية تحديد ظروف تكون العربية الفصحى والأساس اللغوي الذى استندت إليه، واقتضى بحث تلك القضيتين استعراض جهود العلماء في تحديد أصل العربية الفصحى، وبحث ظاهرة الهمز في العربية، ولغة الشعر الجاهلي، وقراءة عاصم وعلاقتها بالفصحى، ولعل أهم نتائج البحث :

١ – لم تكن هناك لغة أدبية مشتركة تنتظم كل أنحاء الجزيرة العربية قبل الإسلام وكان الناس يتكلمون بلغاتهم العربية التي نشأوا عليها، ويحققون التواصل بينهم بالقدر اللغوي المشترك بين تلك اللغات، وهو غير قليل.

٢ – كان الشاعر الجاهلي ينظم بلغة قومه(قبيلته)التي نشأ عليها، وتناقل الرواة ذلك الشعر، وقد يتعرض لبعض التغيير على ألسنة الرواة من القبائل الأخرى.

٣ – حين بعث سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُنزل عليه القرآن بلسان قومه وهم قريش سكان مكة المكرمة، وتلاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الناس بتلك اللغة، وكُتِبَ بها أيضاً، لكن قراءته في زمن النبوة كانت تستجيب لتباين لغات العرب، حيث جاءت رخصة الأحرف السبعة المشهورة.

٤ – حصل امتزاج كبير بين لغات القبائل العربية بعد الإسلام، لكن الغلبة كانت للغة قريش التي مكَّن لها وساعدها القرآن الكريم الذي أُنزل بها وكُتب على نطقها.

٥ – اعتمد علماء اللغة العربية على لغة قريش بالدرجة الأولى في وضع القواعد،

لكن الامتزاج اللغوي ترك آثاره، فاختفت بعض خصائص اللغة الحجازية (لغة قريش) لتحل محلها خصائص لغوية من لغات القبائل العربية الأخرى، مثل ظاهرة الهمز التي اقْتُبِست من لغة بني تميم وأهل نجد، وصارت هذه القواعد نموذجاً يحتذى، وبذلك تميزت ملامح العربية الفصحى.

٦ – إن العامل الحاسم في ظهور العربية الفصحى والتمكين لها هو القرآن، فكما كان للقرآن أثره الكبير في حياة العرب كان له أثره في لغتهم، ولايزال هو العامل الأول في حياتها وديمومتها، فهذه العربية الفصحى، التي استمرت حية، أربعة عشر قرناً، والتي ستستمر في حياتها إلى ماشاء الله تستمد من ارتباطها بالقرآن الكريم عنصر الحياة[١٩٤].

٧ – يمكن القول إن العربية الفصحى قد استقرت خصائصها اللغوية حين انقضت عصور الاحتجاج اللغوي، في حدود القرن الرابع الهجري.

٨ – هناك قضية لها علاقة محتملة بخصائص العربية الفصحى واستقرارها وهي انتشار قراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي(ت١٢٧هـ) برواية تلميذه أبي عمر حفص بن سليمان الأسدي(ت١٨٠هـ)، في أكثر بلدان العالم الإسلامي منذ عدة قرون، فإن استعراضاً سريعاً للخصائص اللغوية لقراءة عاصم وموازنتها بالخصائص التي تميز العربية الفصحى يكشف عن تشابه كبير يحمل على الاعتقاد بأن قراءة عاصم قد أسهمت من بعض الوجوه في ترسيخ العربية الفصحى.

٩ – إذا صح ما انتهي إليه البحث من أن العربية الفصحى تستند إلى اللغة الحجازية في كثير من خصائصها فإن ذلك يقتضي إعادة قراءة النصوص

اللغوية القديمة في ضوء هذه الحقيقة، ومراجعة القواعد النحوية المتوارثة، والبحوث اللغوية الحديثة في ضوء ذلك أيضاً.

١٠ – إن ما سطرته في صفحات هذا البحث يمثل خطوطاً عريضة لمعالجة موضوع البحث، ومع قناعتي بأن ماقدمته فيه قد أدى على نحو واضح وغير متكلف إلى النتائج السابقة فإنني أعترف بأهمية تعميق جوانب متعددة فيه، وحسبي أني لفت أنظار المهتمين بتاريخ اللغة العربية إلى القضية وفسرت ظواهر لغوية كانت تبدو متناقضة مع حقائق تاريخية ثابتة، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، هو حسبنا ونعم الوكيل.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الهوامش

(١) نقلاً عن السيوطي : المزهر ٢٢١/١ .

(٢) نقلاً عن السيوطي : المزهر ٢١١/١ ، والنص في كتاب الحروف للفارابي (ص ١٤٧) مع اختلاف يسير نقله السيوطي .

(٣) الصاحبي في فقه اللغة ص ٣٢ .

(٤) مقدمة تاريخ ابن خلدون : ١٠٧٢/٢ .

(٥) اللغات السامية ص ٧٤ - ٧٥ .

(٦) اللغات السامية ص ٧٨ .

(٧) تاريخ الأدب العربي ٤٢/١ .

(٨) فقه اللغات السامية ص ٢٩ - ٣٠ .

(٩) كذا في النص المترجم ولعلها (عامة) .

(١٠) القرآن : نزوله ، تدوينه ، ترجمته ، تأثيره ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(١١) هو الفصل الثالث من كتابه ، تاريخ الأدب العربي (ص ٧٧ - ٩١) .

(١٢) تاريخ الأدب العربي ص ٨٥ .

(١٣) المصدر نفسه ص ٨٥ - ٨٦ .

(١٤) تاريخ الأدب العربي ص ٨٧ - ٩١ .

(١٥) تاريخ آداب العرب ٨١/١ - ٩٠ .

(١٦) المعركة بين القديم والجديد ص ٢٧١ .

(١٧) في الأدب الجاهلي ص ٩٣ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١٠٣ .

(١٩) المصدر نفسه ص ١٠٥ .

(٢٠) المصدر نفسه ص ١٠٧ .

(٢١) اللغة بين القومية والعالمية ص ٢٧٥ – ٢٧٦ .

(٢٢) مستقبل اللغة العربية المشتركة ص ٨ – ٩ .

(٢٣) ينظر : في اللهجات العربية ص ٤٠ و ٤٦ و ١٢٩ .

(٢٤) في اللهجات العربية ص ١٥٣ ، وتنظر ص ١٣٨ .

(٢٥) في اللهجات العربية ص ١٣٨ .

(٢٦) فصول في فقه العربية ص ٦٣ – ٦٤ ، وينظر أيضاً كتابه : المدخل إلى علم اللغة ص ١٦٧.

(٢٧) فصول في فقه العربية ص ٦٥ – ٧٨ .

(٢٨) المصدر نفسه ص ٦٩ .

(٢٩) علم اللغة العربية ص ٢٣٤ ، وينظر أيضاً كتاباه ، المدخل إلى علم اللغة من ص ٢٤٠ – ٢٥٤ واللغة العربية عبر القرون ص ٤٠ – ٤٣ .

(٣٠) علم اللغة العربية ص ٢٣٧ .

(٣١) في علم اللغة العام ص ٢٢٣ – ٢٢٤ .

(٣٢) ملامح من تاريخ اللغة العربية ص ٢٣ ، ٥١ – ٦١ .

(٣٣) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص ٤٨ ، وفقه اللغة في الكتب العربية (له) ص ١٢٠ ، ويذهب الدكتور عبد الرحمن أيوب إلى رأي قريب من هذا (ينظر : العربية ولهجاتها ص ٤١)

(٣٤) تنظر التفاصيل في كتابه الأصول ص ٧٤ – ٧٨ .

(٣٥) فقه اللغة ص ١١٢ .

(٣٦) اللغة والنحو ص ٤٤ .

(٣٧) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ص ١٣٤ .

(٣٨) دراسات في فقه اللغة ص ٧٢ – ٧٨ وص ١٠٩ .

(٣٩) كان الدكتور جواد علي قد كتب مقالة عن (لهجة القرآن الكريم) في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثالث – الجزء الثاني ، سنة ١٩٥٥م ، ناقش فيها موضوع اللغة التي أنزل بها القرآن ، واستعرض ما ورد في التراث العربي عن الموضوع وأشار إلى ما كتبه المستشرقون ، وفي رأيه فإن (الطريقة المثلى لتكوين رأي علمي عن أمثال هذه الموضوعات .. بالرجوع إلى الكتابات الأصلية المدونة بمختلف اللهجات) (ص ٢٨٣) ووعد في آخر المقالة أن يتمها في العدد الآتي من المجلة ولكني لم أجد التتمة فيه.

(٤٠) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ص ٨٧ .

(٤١) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص ٤٣ .

(٤٢) تاريخ العربية ص ٣٩.

(٤٣) المصدر نفسه ص ٢٨ – ٣٠ .

(٤٤) المصدر نفسه ص ٤١ – ٤٢ .

(٤٥) قال تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ) (الشعراء ١٩٣) قال الطبري (جامع البيان ١٩ / ١١١) : " إن رب العالمين نَزَّلَ بالقرآن الروح الأمين ، وهو جبريل عليه السلام " .

(٤٦) ابن سعد ١/١٦٤ .

(٤٧) ينظر : البخاري ٤/١ .

(٤٨) جامع البيان ١٨١/١٣ .

(٤٩) ابن مجاهد ص ٦٦ .

(٥٠) أبو شامة ص ١٠١ ، وذكر أنه في سنن أبي داود ، لكن محققه قال : إنه غير موجود في النسخة المتداولة من السنن ، وينظر أيضا : ابن حجر ٢٧/٩ .

(٥١) البخاري ٢٢٦/٦ ، وابن أبي داود : ص ١٨ ، وابن النديم : ص ٢٧ ، والداني : المقنع ص ٥ ، والزركشي ٢٣٦/١ ، والسيوطي : الإتقان ١٦٩/١ .

(٥٢) الجامع الصحيح ٢٢٤/٦ .

(٥٣) يمكن الاطلاع على روايات الحديث عند : البخاري ٢٢٧/٦ ، ومسلم ٢٠٢/٢ ، والطبري ١١/١ - ٢٠ ، وأبو شامة : ص ٦٢ - ٦٩ .

(٥٤) الطبري ٢٩/١ .

(٥٥) راجع نصوص تلك الروايات في المصادر الواردة في هامش (٥٣) .

(٥٦) المرشد الوجيز ص ٩٦ - ٩٧ .

(٥٧) يمكن الاطلاع على تفصيلات الموضوع والتعرف على مصادره في كتابي محاضرات في علوم القرآن ص ١٠٢ - ١٢٨ .

(٥٨) الكتاب ٥٧/١ - ٥٩ ، وينظر : الفراء ٤٢/٢ و ١٣٩/٣ ، والأخفش ١٢٩/١ .

(٥٩) معاني القرآن ٣٩٤/٢ .

(٦٠) معاني القرآن ٢٧٩/٢ .

(٦١) المصدر نفسه ٣٨٤/٢ .

(٦٢) كنت قد استعملت الظواهر الكتابية في رسم المصحف للدلالة على أصالة الإعراب

في اللغة العربية في بحث (ظاهرة الإعراب في ضوء رسم المصحف) المنشور في مجلة كلية الشريعة بجامعة بغداد سنة ١٩٨١ ، العدد السابع .

(٦٣) يمكن الاطلاع على تفصيلات وافية حول هذا الموضوع في الفصل الثالث من كتابي (رسم المصحف : دراسة لغوية تاريخية) .

(٦٤) ينظر سيبويه ٥٤١/٣ - ٥٥٦ وابن جني ٤٦/١ .

(٦٥) ينظر معاني القرآن ٢٢٠/٢ و ١٣٦/٣ .

(٦٦) ينظر : الفراء ١٣٤/٢ ، وابن السراج ص ١١٧ ، وابن جني ٤٦/١ .

(٦٧) ينظر : الداني : المقنع ص ٥٩ - ٦٢ ، وابن وثيق ص ٧١ - ٧٥ .

(٦٨) المحكم ص ١٥١ .

(٦٩) همع الهوامع ٢٣٣/٢ .

(٧٠) نقلا عن الأزهري ٦٩١/١٥ ، ونقله عنه ابن منظور ١٤/١ .

(٧١) النشر ٤٢٨/١ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(٧٢) انظر عن تلك المؤلفات : أحمد علم الدين بن الجندي ص ١٠١ .

(٧٣) ينظر : الطبري ٨/١ ، والجواليقي ص ٥٣ .

(٧٤) ينظر : الجوهري ٨٨٩/٢ (همز) ، وابن منظور ٢٩٣/٧ (همز) .

(٧٥) ابن دريد ٢٧٧/١ ، وابن منظور ٣٩/٧ (همز) .

(٧٦) الأزهري ٦٩١/١٥ ، وابن منظور ١٤/١ .

(٧٧) إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية ص ٧٩ .

(٧٨) رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٦٨ .

(٧٩) أحمد علم الدين الجندي ص ٢٤٤ .

(٨٠) ينظر : الكتاب ٣/٥٤١ – ٥٥٦ .

(٨١) الكتاب ٣/٥٥٥ .

(٨٢) الأزهري ١٥/٢١٥ ، وابن منظور ٧/٣٩ وذكر نحوه البنا الدمياطي ، وقال : أخرجه الحاكم وصححه ، وقال عنه أبو عبيد : أنكر عدوله عن الفصحى (إتحاف فضلاء البشر ص ٥٨) ، وينظر أيضاً : السيوطي : الإتقان ١/٢٧٧ .

(٨٣) النشر ١/٤٢٨ ، وينظر : السيوطي : الإتقان ١/٢٧٧ .

(٨٤) نقلاً عن ميزان الاعتدال للذهبي ٤/٣١٣ ، لأني لم أجد النص في طبقات ابن سعد .

(٨٥) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١/١٠ .

(٨٦) تاريخ خليفة ٢/٦٧٠ .

(٨٧) ابن منظور : لسان العرب ٧/٤٠ (نبر) ، ووجدت في كتاب الحروف لأبي الحسين المزني رواية عن الأعمش عن إبراهيم أن علياً – كرم الله وجهه – قال : (نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم بالهمز فلذلك همزنا) (ص ١٢٩) وإبراهيم النخعي لم يلق علياً . وجاء في الكتاب أيضاً (ص ١٢٩) عن أبي عبد الرحمن السلمي أن علياً – كرم الله وجهه – كان يهمز ويدع (أي يسهل) .

(٨٨) النشر ١/٤٢٨ ، وسبق إيراد النص كاملاً في هامش (٧١) .

(٨٩) النشر ١/٤٢٨ .

(٩٠) ينظر : ابن الجزري ، تحبير التيسير ص ٥٤ – ٥٦ ، والبنا الدمياطي ص ٥٤ .

(٩١) ينظر : المصدران السابقان ص ٥٩ – ٦٠ ، وص ٥٥ – ٥٦ .

(٩٢) ينظر : ابن مجاهد ص ١٣٠ ، والداني ، التيسير ص ٣٣ – ٣٥ .

(٩٣) ينظر عن الاختيار : كتابي : محاضرات في علوم القرآن ص ١٣٥ .

(٩٤) ابن الجزري : غاية النهاية ٢/٢٨٢ .

(٩٥) السبعة ص ٩٢ .

(٩٦) المصدر نفسه .

(٩٧) الذهبي : معرفة القراءة ١/٩١ .

(٩٨) كتاب السبعة ص ٦٠ ، وينظر : ابن الجزري : غاية النهاية ٢/٢٩٧ .

(٩٩) ترجمته عند : ابن الجزري : غاية النهاية ٢/٢٩٧ .

(١٠٠) إيضاح الوقف والابتداء ١/٣٩٢ .

(١٠١) الطبري ١/١٩ ، وأبو شامة ص ١٣٠ .

(١٠٢) تأويل مشكل القرآن ص ٣٩ .

(١٠٣) نكت الانتصار ص ٢٨٥ .

(١٠٤) نقلاً عن : الزركشي ١/٢٨٤ .

(١٠٥) ينظر : الفارابي ص ١٤٧ ، والسيوطي : المزهر ١/٢١١ .

(١٠٦) ينظر عن القبائل النازلة في البصرة : صالح أحمد العلي ص ٥١ و ٢٠٧ . وفي الكوفة : محمد حسين الزبيدي ص ٤١ - ٤٥ .

(١٠٧) تاريخ فتوح الشام ص ١٦ و ٢١٨ ، وينظر : إبراهيم أنيس ، في اللهجات العربية ص ٦٠ .

(١٠٨) الجاحظ ١/١٨ .

(١٠٩) طبقات الشعراء ص ٦ ، ونقل ذلك الأزهري ١/٨ .

(١١٠) مجالس العلماء ص ٢٤٣ .

(١١١) ابن الجزري : غاية النهاية ٢٨٨/١ - ٢٨٩ .

(١١٢) ابن مجاهد ص ١٣١ .

(١١٣) الحلبي ص ١٢ .

(١١٤) ابن النديم ص ٥٨ و ٦١ ، والقفطي ٢٢٠/٣ و ٢٠٢/٢ .

(١١٥) ابن النديم ص ٦٠ ، والقفطي ٢٥/٢ .

(١١٦) ينظر : رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٢٢٣ .

(١١٧) المصدر نفسه .

(١١٨) المحكم ص ٨ .

(١١٩) ينظر : الهمداني : ص ٨٥ ، وصفي الدين البغدادي : ص٢٨٣ ، ٢٨٠ ، ٩٣٤ ، ١٥٢٨، ١٤٨٣ .

(١٢٠) أبو شامة ص ١٢٨ .

(١٢١) ابن سلام ص ٤ - ٥ .

(١٢٢) ينظر : رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٢٧ - ٢٨ .

(١٢٣) فند ريس ص ٢٩٦ ، وينظر : ماريو باي ص ٦٩ .

(١٢٤) إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية ص ١٦ .

(١٢٥) ينظر : إبراهيم أنيس : مستقبل اللغة العربية المشتركة ص ٢ ، وعبد الصبور شاهين ص ١٦٩ ، ورمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة ص ١٦٥ .

(١٢٦) ينظر : فند ريس ص ٣٢٨ ، ورمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(١٢٧) إبراهيم أنيس : مستقبل اللغة العربية المشتركة ص ٩ ، ورمضان عبد التواب :

فصول في فقه العربية ص ٦٥ .

(١٢٨) الزبيدي : ص ٣٩ ، والسيوطي : المزهر ١/١٨٤ .

(١٢٩) إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية ص ١٧ .

(١٣٠) ابن يعيش : ٩/١٠٧ .

(١٣١) المصدر نفسه : ٩/٥٤ .

(١٣٢) ينظر أيضاً : غالب فاضل المطلبي ص ٥٥ .

(١٣٣) سيبويه ١/٥٧ و ١٢٢ و ١٤٦ .

(١٣٤) المصدر نفسه ٤/١١٠ .

(١٣٥) المصدر نفسه ٢/٥٥٧ ، والأخفش ١/٩٨ .

(١٣٦) سيبويه ٢/٢٨٣ .

(١٣٧) المصدر نفسه ٢/١٠٧ – ١٠٨ .

(١٣٨) المصدر نفسه ٤/١٨٢ .

(١٣٩) المصدر نفسه ٢/٢٧٧ .

(١٤٠) نقلا عن السيوطي : همع الهوامع ٢/٢٣٢ .

(١٤١) ينظر : الفارابي ص ١٤٧ ، والسيوطي : المزهر ١/٢١١ .

(١٤٢) المعركة بين القديم والجديد ص ٣٧١ .

(١٤٣) طبقات اللغويين والنحويين ص ٤٢ – ٤٤ .

(١٤٤) العربية ص ١٦٠ .

(١٤٥) الكتاب ٢/٣١٩ – ٣٢٣ ، وهناك أمثلة في الكتاب ، ينظر : ١/٤٧ ، و٤٩ و ٧٢ و ٨٢ و٢٥٩ و ٤٠١ و ٢/١٦٧و ١٨٦ و ٣/١٨٢ و ٤٦٨ .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

(١٤٦) معاني القرآن ٢٤٢/١ .

(١٤٧) المصدر نفسه ٢٨٣/٢ .

(١٤٨) المصدر نفسه ٢٧٥/٢ ، وتنظر أمثلة أخرى : ١٠٥/١ و ١٦٩ و ٢٠٤ و ٢٦/٢ و٢٤٨ . وعند الأخفش أيضا ٦٤/١ و ١٤٥ و ١٥٧ و ٢٨٠ و ٢٤١/٢ .

(١٤٩) القصيدة من ص (٧٣٣ - ٧٧٦) والأبيات هي : (٢ - ٣ - ٤ - ٨ - ١١ - ١٢ - ١٤ - ١٦ - ١٨ - ٢٠ - ٢٢ - ٢٨ - ٣٠ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٤١ - ٤٢ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠) .

(١٥٠) القصيدة من ص (٣٥٩ - ٤٥٠) والأبيات هي (٥ - ٦ - ٩ - ١٢ - ١٤ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢١ - ٢٦ - ٢٨ - ٣٢ - ٣٥ - ٣٩ - ٤١ - ٤٢ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥١ - ٥٢ - ٥٤ - ٦٠ - ٦١ - ٦٣ - ٦٤ - ٧١ - ٧٤ - ٧٦ - ٧٨ - ٨٠ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٩) .

(١٥١) تنظر أمثلة ذلك في كتاب النوادر ص (٤ - ٩ - ١٤ - ٢٩ - ٣٥ - ٣٦ - ٤٠ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٥٠ - ٦٢ - ٦٧ - ٧٠ - ٧٥ - ٨١ - ١١٧ - ١٢٥ - ١٥٣) .

(١٥٢) لم يثبت تدوين الشعر الجاهلي على نحو واسع قبل عصر التدوين (ينظر : ناصر الدين الأسد ص ١٠٨ - ١٣٣) .

(١٥٣) نقلاً عن السيوطي : المزهر ٢٦١/١ وذكر نحوه البغدادي ١٧/١ .

(١٥٤) المعركة بين القديم والجديد ص ٣٣٦ ، وينظر أيضاً : تاريخ آداب العرب (له) ٣٨٨/١ .

(١٥٥) طبع في مطبعة دار الحرية ببغداد سنة ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨م .

(١٥٦) الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة ص ١٦٥ - ٢٣٢ .

(١٥٧) المصدر نفسه ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(١٥٨) ابن مجاهد ص ٥٠ .

(١٥٩) علم الدين السخاوي ٢/٤٢٤ - ٤٣١ .

(١٦٠) ابن مجاهد ص ٨٧ .

(١٦١) المصدر نفسه ص ٦٦ - ٦٩ .

(١٦٢) ابن الجزري : غاية النهاية ١/٢٩٤ و ٣٠٣ .

(١٦٣) علم الدين السخاوي ٢/٤٦٥ .

(١٦٤) غاية النهاية ١/٣٤٧ ، وينظر : ابن مجاهد ص ٩٧ .

(١٦٥) سيبويه ٣/٥٤١ ، والأزهري ١٥/٦٩١ ، وابن يعيش ٩/١٠٧ .

(١٦٦) إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية ص ٧٨ ، وتمام حسان ص ٧٥ .

(١٦٧) ابن مجاهد ص ١٣٠ و ١٣٥ و ١٣٨ والحنبلي ص ٥ - ٦ .

(١٦٨) ينظر : سيبويه ٤/١١٨ ، والداني : الموضح ورقة ٢ و وابن يعيش ٩/٥٤ .

(١٦٩) ابن الجزري : النشر ٢/٤١ .

(١٧٠) الكتاب ٣/٥٤٨ .

(١٧١) الكتاب ٣/٥٥٢ .

(١٧٢) انظر مثلاً : ابن يعيش ٩/١١٦ .

(١٧٣) ابن مجاهد ص ١٣٨ ، والحنبلي ص ٦ .

(١٧٤) جمال القراء ٢/٤٦٤ ، وجاء مثله في مسائل الإمام أحمد من رواية إسحاق بن إبراهيم النيسابوري ١/١٠٠ ، وذكر ابن الجزري القصة عن ابنه عبد الله (غاية النهاية ١/٣٤٨) .

(١٧٥) التبصرة ص ٢١٩ .

(١٧٦) الذهبي : معرفة القراء ٧٥/١ .

(١٧٧) ابن مجاهد ص ٧١ .

(١٧٨) المصدر نفسه ص ٧٠ .

(١٧٩) مكي : التبصرة ص ٢٣٠ .

(١٨٠) الداني : التيسير ص ١٨ .

(١٨١) جمال القراء ٤٦٥/٢ .

(١٨٢) ابن مجاهد ص ٧١ .

(١٨٣) ابن الجزري : غاية النهاية ٣٢٦/١ .

(١٨٤) الذهبي : ميزان الاعتدال ٥٥/١ .

(١٨٥) الخطيب البغدادي ١٨٦/٨ .

(١٨٦) المصدر نفسه .

(١٨٧) ابن الجزري : غاية النهاية ١١٣/١ .

(١٨٨) إيضاح الوقف والابتداء ١١٣/١ .

(١٨٩) الذهبي : معرفة القراء ١١٦/١ ، وابن الجزري : غاية النهاية ٢٥٥/١ .

(١٩٠) تاريخ بغداد ١٨٥/٤ .

(١٩١) البحر المحيط ١١/١ .

(١٩٢) جهد المقل ورقة ٦٥ و .

(١٩٣) صفي الدين البغدادي ١٢٥٩/٣ .

(١٩٤) رمضان عبد التواب : التطور اللغوي ص ٩

المصـــادر

١ - إبراهيم أنيس(دكتور) : في اللهجات العربية، ط٤، مكتبة الأنجلو المصرية١٩٧٣م.

٢ - إبراهيم أنيس (دكتور) : اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف بمصر١٩٧٠.

٣ - إبراهيم أنيس (دكتور) : مستقبل اللغة العربية المشتركة، معهد الدراسات العربية القاهرة١٩٦٠م.

٤ - إبراهيم السامرائي (دكتور): تاريخ العربية، دار الكتب ـ جامعة الموصل١٩٧٧ م.

٥ - أحمد بن حنبل: مسائل الإمام أحمد، رواية إسحاق بن إبراهيم النيسابوري، المكتب الإسلامي، بيروت١٤٠٠هـ.

٦ - أحمد علم الدين الجندي(دكتور): اللهجات العربية في التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٦٥م.

٧ - أحمد نصيف الجنابي(دكتور): ملامح من تاريخ اللغة العربية، دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨١م.

٨ - الأخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعدة): معاني القرآن، تحقيق د. فائز فارس ط٢،عمان،١٤٠١هـ ، ١٩٨١م.

٩ - الأزدي(محمد بن عبد الله): تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠ م .

١٠ - الأزهري(محمد بن أحمد): تهذيب اللغة، حققه جماعة، القاهرة١٩٦٤م-١٩٦٧م .

١١ – ابن الأنباري(محمد بن القاسم): إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن، دمشق ١٩٧١م.

١٢ – الباقلاني(محمد بن الطيب): نكت الانتصار لنقل القرآن، اختصره محمد بن عبد الله الصيرفي، تحقيق د. محمد زغلول سلام، الإسكندرية١٩٧١م.

١٣ – البخاري (محمد بن إسماعيل): الجامع الصحيح، طبع محمد صبيح، القاهرة.

١٤ – بروكلمان(كارل): تاريخ الأدب العربي جـ١، ترجمة عبد الحليم النجار، ط٤،دار المعارف بمصر١٩٧٧م.

١٥ – بروكلمان (كارل): فقه اللغات السامية، ترجمة د. رمضان عبد التواب، مطابع جامعة الرياض ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م.

١٦ – البغدادي (عبد القادر بن عمر): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م.

١٧ – بلاشير (ريجيس): تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي)، ترجمة د. نجيب كيلاني ،دار الفكر، بيروت ١٩٦٥م.

١٨ – بلاشير (ريجيس): القرآن : نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره، ترجمة رضا سعادة، ط١، بيروت١٩٧٤م.

١٩ – البنا الدمياطي (أحمد بن محمد): إتحاف فضلاء البشر، القاهرة ١٩٥٩م.

٢٠ – تمام حسان(دكتور): الأصول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٨.

٢١ – الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط ٥ ، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.

٢٢ – ابن الجزرى(أبو الخير محمد بن محمد) تحبير التيسير، ط١، دار الوعي بحلب

١٣٩٢هـ ،١٩٧٢م.

٢٣ – ابن الجزري (أبو الخير محمد بن محمد): غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق برجستراسر، مكتبةالخانجي القاهرة ١٩٣٢م.

٢٤ – ابن الجزري (أبو الخير محمد بن محمد): النشر في القراءات العشر، مطبعة مصطفى محمد بمصر.

٢٥ – ابن جني(أبو الفتح عثمان) سر صناعة الإعراب جـ١، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط١، مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٤م.

٢٦ – جواد علي(دكتور): لهجة القرآن الكريم، مجلة المجمع العلمي العراقي مج٣ ج٢، ١٩٥٥م.

٢٧ – الجواليقي (موهوب بن أحمد): المعرب من الكلام الأعجمي، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٢، مطبعة دار الكتب، القاهرة١٣٨٩هـ ، ١٩٦٩م.

٢٨ – الجوهري ـ (إسماعيل بن حماد) : تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، القاهرة١٩٥٦م.

٢٩ –ابن حجر (أحمد بن علي): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ

٣٠ – حسن عون (دكتور): اللغة والنحو، ط١، الإسكندرية١٩٥٢م.

٣١ – الحلبي(عبد الواحد بن علي): مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٥٥م.

٣٢ – الحنبلي (محمد بن عبدالباقي) رسالة في قراءة حفص، مخطوط، دار صدام للمخطوطات، بغداد، الرقم٩٥٥.

٣٣ – أبو حيان الأندلسي(محمد بن يوسف): البحر المحيط، الرياض(د.ت) .

٣٤ – الخطيب البغدادي(أحمد بن علي): تاريخ بغداد، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٤٩ ، ١٩٣١م.

٣٥ – ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): تاريخ ابن خلدون(المقدمة)دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٧م.

٣٦ – خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٦٧م.

٣٧ – الداني(أبو عمرو عثمان بن سعيد): التيسير في القراءات السبع،تحقيق أوتو برتزل ، إستانبول ١٩٣٠م.

٣٨ – الداني(أبو عمرو عثمان بن سعيد): المحكم في نقط المصاحف، تحقيق د. عزة حسن، دمشق ١٩٦٠م .

٣٩ – الداني(أبو عمرو عثمان بن سعيد): الموضح لمذاهب القراء في الفتح والإمالة، مخطوط في مكتبة عارف حكمت بالمدينة رقمه ١٢ قراءات.

٤٠ – ابن أبي داود (عبد الله بن سليمان): كتاب المصاحف، تحقيق أرثر جفري، ط١، المطبعة الرحمانية بمصر١٩٣٦م.

٤١ – ابن دريد(محمد بن الحسن): جمهرة اللغة، ط١، حيدر أباد،١٣٤٥هـ.

٤٢ – الذهبي (محمد بن أحمد): معرفة القراء الكبار، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٩م .

٤٣ – الذهبي (محمد بن أحمد): ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر.

٤٤ – رمضان عبد التواب(دكتور) فصول في فقه العربية، ط١، مكتبة دار التراث، القاهرة ١٩٧٣م.

٤٥ – رمضان عبد التواب (دكتور): في التطور اللغوي، ط١، القاهرة ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٣م.

٤٦ – رمضان عبد التواب (دكتور):المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ط١، القاهرة١٤٠٣ ، ١٩٨٢م.

٤٧ –الزبيدي (أبوبكرمحمد بن الحسن): طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دارالمعارف بمصر ١٩٧٣م.

٤٨ – الزجاجي(عبد الرحمن بن إسحاق)مجالس العلماء، تحقيق عبد السلام محمد هارون الكويت ١٩٦٢م.

٤٩ – الزركشي(محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٢م.

٥٠ – أبو زيد الأنصاري(سعيد بن أوس): النوادر في اللغة، ط٢، دار الكتاب العربي بيروت ١٣٨٧هـ ، ١٩٦٧م.

٥١ – ابن السراج (محمد بن السري) كتاب الخط، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مجلة المورد،مج٥ ـ العدد الثالث ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

٥٢ – ابن سعد (محمد) الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت ١٩٥٧م.

٥٣ – ابن سلاّم (محمد): طبقات الشعراء،ليدن ١٩١٣م.

٥٤ – السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،ط١، القاهرة ١٩٦٧م.

٥٥ – السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) : المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، دار إحياء الكتب العربية،

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

القاهرة١٩٥٨م.
٥٦ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) :همع الهوامع شرح جمع الجوامع: صححه محمد بدر الدين النعساني ط١، الخانجي بمصر١٣٢٧هـ .
٥٧ - أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل): المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، تحقيق طيار آلتي قولاج، بيروت ١٩٧٥م.
٥٨ - شوقي ضيف(دكتور): تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي)، ط٣، دار المعارف بمصر.
٥٩ - صالح أحمد العلي (دكتور): التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري،ط٢، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٩م.
٦٠ - صبحي الصالح(دكتور): دراسات في فقه اللغة، ط ٢ ، دار العلم للملايين ١٣٨٨هـ ، ١٩٦٨م.
٦١ - صفي الدين البغدادي(عبد المؤمن بن عبد الحق): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق محمد البجاوي،ط١، دار المعرفة بيروت١٣٧٢هـ ، ١٩٥٤م.
٦٢ - الطبري (محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ط٣، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة١٣٨٨هـ ، ١٩٦٨م.
٦٣ - طه حسين: في الأدب الجاهلي، ط١٠، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م .
٦٤ - عبد الرحمن أيوب(دكتور): العربية ولهجاتها، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٨م.
٦٥ - عبد الصبور شاهين(دكتور): في علم اللغة العام، ط٢، مطبعة المدني، القاهرة ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م.

٦٦ – عبده الراجحي(دكتور): فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية بيروت١٩٧٤م.
٦٧ – عبده الراجحي(دكتور): اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعارف ١٩٦٨م.
٦٨ – علم الدين السخاوي (علي بن محمد): جمال القراءة وكمال الإقراء ، تحقيق د. علي حسين البواب، القاهرة ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٧م.
٦٩ – علي عبد الواحد وافي (دكتور): فقه اللغة، ط٧، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٢م.
٧٠ – غالب فاضل المطلبي: لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م.
٧١ – غانم قدوري الحمد: رسم المصحف : دراسة لغوية تاريخية، بغداد ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م.
٧٢ –غانم قدوري الحمد: محاضرات في علوم القرآن، بغداد ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م.
٧٣ – الفارابي(أبو نصر محمد بن محمد): كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت١٩٦٩م.
٧٤ – ابن فارس(أحمد): الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق السيد أحمد صقر، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٧م.
٧٥ – الفراء (يحيى بن زياد): معاني القرآن، القاهرة١٩٥٥م ـ ١٩٧٢.
٧٦ – فند ريس: اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٠م.

٧٧ – ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم): تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر،ط٢، القاهرة ١٩٧٢م.

٧٨ – القرطبي(محمد بن أحمد) : الجامع لأحكام القرآن، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٢م.

٧٩ – القفطي(علي بن يوسف): إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار الكتب المصرية ١٩٥٠م.

٨٠ – ماريو باي: أسس علم اللغة، ترجمة د. أحمد مختار عمر، طرابلس ـ ليبيا١٩٧٣م.

٨١ – ابن مجاهد(أحمد بن موسى) كتاب السبعة، تحقيق د. شوقي ضيف، دارالمعارف بمصر، القاهرة١٩٧٢م.

٨٢ – محمد حسين الزبيدي(دكتور): الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري، القاهرة١٩٧٠م

٨٣ – محمد المرعشي: جهد المقل في علم التجويد، مخطوط في دار صدام للمخطوطات رقمه(١١٠٦٨)

٨٤ – محمود فهمي حجازي (دكتور): علم اللغة العربية، دار العلم للملايين، بيروت١٩٧٣م.

٨٥ – محمود فهمي حجازي (دكتور): اللغة العربيةعبر القرون، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٨م

٨٦ – محمود فهمي حجازي (دكتور): المدخل إلى علم اللغة، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٦م.

٨٧ – مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ط٢، مطبعة الاستقامة ١٣٥٩هـ ، ١٩٤٠م.
٨٨ – مصطفى صادق الرافعي: المعركة بين القديم والجديد(تحت راية القرآن) ط٤، القاهرة ١٣٧٦هـ ، ١٩٥٦م.
٨٩ – مكي بن أبي طالب: التبصرة في القرءات السبع، تحقيق د. محمد غوث الندوي ط٢، بومبي ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م.
٩٠ – المزني(أبو الحسن): كتاب الحروف، تحقيق د. محمود حسني ود. محمد حسن، عمان ١٩٨٣م.
٩١ – ابن منظور(محمد بن مكرم): لسان العرب، طبعة بولاق.
٩٢ – ناصر الدين الأسد(دكتور): مصادر الشعر الجاهلي،ط٥، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨م .
٩٣ – النحاس (أحمد بن محمد): شرح القصائد التسع المشهورات، تحقيق أحمد خطاب، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م.
٩٤ – ابن النديم(محمد بن إسحاق): الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران ١٩٧١م
٩٥ – نولدكه (تيودور) : اللغات السامية، ترجمة د. رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية ١٩٦٣م.
٩٦ – هاشم الطعان(دكتور): الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة ، دارالحرية، بغداد ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
٩٧ – الهمداني (الحسن بن أحمد): صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٩م.

٩٨ – ابن وثيق (إبراهيم بن محمد): الجامع لما يُحتاج إليه من رسم المصحف، تحقيق د.غانم قدوري الحمد، مطبعة العاني، بغداد ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٩م.

٩٩ – ابن يعيش(يعيش بن علي): شرح المفصل ،المطبعة المنيرية بمصر.

١٠٠ – يوهان فك: العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ترجمة د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بمصر ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامی